أنْ جاءَها الأعمَى

اسم الكتاب: أن جاءها الأعمى
اسم الكاتبة: إيمان صلاح الدين
تدقيق لغوي: مصطفى حسين
تصميم الغلاف: ربيع أيوب
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – 2020 م
رقم الإيداع: 2021 / 2887
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6852 – 33 – 4

almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليًا أو جزئيًا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

أنْ جاءَها الأعْمَى

رواية

إيمـان صلاح الدين

إهْــداءٌ

- "إلى أبي وإلى كلِّ من كان لأنثاهُ أبًا، إلى أمي وإلى كلِّ من كانت لأنثاها أمًّا".
- "إلى روح أستاذي في الابتدائية أحمد إبراهيم، لم يمت بعد، ولكن إن شاء الله".
- " إلى كلِّ من ساهم في تكوين عقلي وعقيدتي وحياتي"
- "إلى كل من يقف على ثغر من ثغور الإسلام".

المقدمة

"لا داعيَ للمقدمات؛ فلا يقرؤها أحدٌ إلا من رَحِم ربِّي".

إيمان صلاح الدين.

الفصل الأول

"راعني ذاك المجذوب المُلتفّ على نفسه في ركن بين بيتين أمام شرفة منزلي، فأراه صباحًا ومساءً، أمرُّ عليه في الغدو والرواح، ظللتُ أتأمله ذات مرة من شرفتي بعد الشروق بلحظات، أنَّى له أن يفترش التراب عند نومه بهذه الأريحية والسلام، وكيف يحتمي من البرد أو الحر ببعض الأكياس البلاستيكية التي يبدو عليها القذارة والعفن، شعره أشبه ببكرة صوف بنية مبعثرة ومتلبكة فتبدو كخيوط عنكبوت متشابكة تعلوها الأتربة لها مئات السنين وسط مغارة عتيقة، وجهه تكسوه لحية كثّة يشوبها بعض الشيب وتترنح مع الهواء كفروة كبش بنية لم يزُرها حلاق الغنم منذ أمد بعيد، ملامحه مخفية بين تلك الخيوط المتشابكة، ملابسه رثّة وحيدة اللون، كأنه لتوّه قد خرج من فيلم أبيض وأسود، عيناه زائغتان غير متزنتين، يرسم بأصابعه على الأرض أشكالًا غير مفهومة.

عند التاسعة صباحًا خرجت لأشتري بعض الحاجيات، مررت عليه أثناء ذهابي، وفي عودتي اقتربت منه وأنا أحمل الخبز وبعض الخضروات، توجست منه أن يردّني أو يبدر منه أي رد فعل ليس في حسباني، اقتربت ببطء، يبدو أنه لاحظ اقترابي فهدأت أصابعه العابثة في الأرض والتراب،

ثبَّت عينيه على خصري فخجلتُ منه على الرغم من انسدال خماري على عباءتي الفضفاضة، تحدثت إليه بريبة وحذر، وقلت:

_ هل لك ببعض الخبز؟؟

فأجاب برزانة:

_أكون شاكرًا لكِ إن كان هناك بعض الشاي معه..

تعجبت من جراءة مطلبه محدثة نفسي:

_(شاي مرة واحدة، وكأنك تنتظر ما عرضت عليك) فاعتذرت منه قائلة:

_ ليس معي الآن، ولكن عشرة دقائق وسأحضره لك.

فأجاب بهدوء ومازال يوجه بصره تجاه خصري مما أغضبني وأثار حفيظتي:

_إن تكرمتِ، وبعض الماء. مادًّا يده اليمنى بكوب بلاستيكي فقلت متأففة:

_لا، لا، أنا سأحضر من عندي.

فرد يده إلى جنبه ووضع الكوب أمامه بهدوء.

تعجبت من هدوئه وعقله، ووضعت جانبه بعض الأرغفة مخافة لمسه، ودخلت إلى منزلي في خفة لأعد له كوبَ الشاي على عجالة، وأنا بالمطبخ كنت أفكر كيف لي أن أساعد هذا المتشرد المجذوب الذي لم يغض بصره

عني، وظل يتفحص قدي بشكل مريب؟ آهِ لو علمت أمي، لوبختني أيما توبيخ، بينما أنا غارقة في التفكير سقط مني صحنٌ فقطع تفكيري وأحدث بعض الجلبة وكأنه يقصد إيقاظ أمي ويعلمها أنه سينكسر فيحفزها على توبيخي! استيقظت أمي ونادت:

_ هل تحضرين الإفطار؟

فأجبتُ:

نعم يا أمي..

أسرعت وحملت الإفطار وخرجت له بسرعة، نزلت الدرج المكون من أربع سلمات رخاميات في خطوتين، كنت قد عزمت أن أضع الشاي في كوب بلاستيكي من عندي وأفرغه في كوبه البلاستيكي الملقى بجانبه دون أن يلمس كوبي.

اقتربت منه لأعطيه الإفطار المكون من بعض الجُبن والبيض المقلي مع الشاي والماء، فتعمدت أن أفرغ كوبي في كوبه دون لمسه، ووضعت زجاجة الماء جانب الشاي، فإذا به يفرغ الكوبَ في كوبٍ زجاجي آخر موضوع داخل كيس نظيف خلفه وقد انسكب بعضه على الأرض وكأن تركيزه مشوش، فقلت بحذر أقل:

_ تفضل هذا بعض الإفطار لك تناوله مع الخبز.

فقام بفرش الأرض أمامه ببعض الورق لوضع الطعام عليه وكأنه تعود ذلك، وإذا به يمد عينيه تجاه قدمي هذه المرة فمددت يدي لأناوله صنية الطعام المصنوعة من الفلّين، فلم أُرِد استردادها مرة أخرى، ولكنه مد يده تجاه قدمي ليستلم مني الطعام؛ فعجِبتُ بصمت ونزلت بجسدي لمستوى يديه وجلست القرفصاء أمامه بلا توجس أو خوف هذه المرة -إن شعورك بعقل ورزانة من أمامك يبثُّ فيك شيئًا من الأمان- لأكتشف أنه ضرير لا يرى، وتيقّنت من ذلك عندما تحسس الطعام؛ فأصاب ترتيبه بالفوضى وسكب بعض الماء دون أن يشعر داخل كوب الشاي".

أغلقت أمل كتيّب مذكراتها بعد أن قرأت ما كتبت بكل عُجب مرات ومرات، متسائلة عن حال ذلك الكائن القابع بالخارج، تذكرته عندما تتبّعها بالأمس... ليقاطعها صوت طفولي تألفه وتستكين به :

_أمي، هلمّي جدتي في غرفتها وقد جاءتها الحالة، وصارت تصرخ وتنادي عليكِ!

ردت أمل بابتسامة لطيفة مقاطعة له:

-ولد هذا عيب، جدتك ليست عندها حالة، يبدو أنك أغضبتها كالعادة، وقامت من على متكئها وقد أغلقت كتيبها وأخفته داخل بعض الأوراق على مكتبها، ذهبت أمل مهرولة لوالدتها متسائلة:

-ماذا حدث يا أمي؟ هذا الـ يونس ماذا فعل لأؤدبه لكِ يا غالية؟ لتبادرها والدتها بلهجة صارمة وعين غاضبة وحاجبين مقتضبين متجاهلة تدليل أمل لها:

-يبدو أن أم يونس هي من تحتاج لمن يؤدبها وليس يونس. فطنت أمل لما في خلد والدتها، وآثرت الصمت حتى لا تزيد ثورتها، تاركة لها زمام الحوار المليء بالشكوك كالعادة.

- من أعطى ذلك المجنون سترة زوجي وبنطاله؟

قالتها مشيرة بإصبعها تجاه الحائط المقابل، بعصبية تكاد تطيح ببرواز زجاجي يحمل صورة لضابط صاعقة بملامح هادئة تدّعي الصرامة معلقة على الحائط نفسه.

ردت أمل بهدوء مصطنع يخفي تحته استنكارًا وتأففًا قد ورثته أمل عن والدتها:

-وماذا حدث لأبي غير الثواب والأجر، وأيضًا لكِ ولي وليونس، نحن عرجى ومكاسير نشحذ الثواب يا أمي؛ فلا تحرمينا ثوابَ أن ننفق مما نحب؛ علّنا نلحق بأهل الجنة..

قاطعتها والدتها بثورة عارمة كالبركان:

– ومن أذن لكِ يا أمل؟ من حكم في غير ماله فقد ظلم يا شيخة، أم نَسيتِ؟ لو استأذنتيني لتغير الوضع، ودعكِ من نبرة الوعظ المملة تلك في حديثك، وكأننا كلنا مذنبون وأنتِ الملاك الطاهر!

صمتت أمل لبرهة ثم تراجعت للوراء كاتمة دمعة قد تحجرت في عينيها، وأخذت نفسًا عميقًا قائلة:

-أليس أبي؟ ولي فيه مثل ما لكِ فيه؟

ردت والدتها بحزم وكِبر:

_ لا، ليس أبيكِ وأنتِ تعلمين ذلك، لا تكذبي على نفسك وتصدقي الكذبة، ليس معنى أنه ربّاكِ كابنته ولم يحرمكِ شيئًا أن تجعليه أبًا لكِ، قلت لكِ أبوكِ مات وأنتِ طفلة وتركنا معدمين و...

قاطعتها أمل بملل وكأنها تردد نصًّا أدبيًّا مجبرة على حفظه وتسميعه على الرغم من ركاكته ناظرة للسقف ويداها ملفوفتان حول بعضهما أمام صدرها:

_وجاء عمي طاهر مشكورًا وتزوجك ليصونك عن كلاب السكك وعن أهل أبي الذين طردوكِ من بيتك في الصعيد، وأنا كنت رضيعة لا أعي وقتها وأخذوا ميراثي وميراثك..، لتفك يديها وتمسك بظهر كرسي خاص بحجرة نوم أمها وتنظر في عين أمها الجامدة بعينين واهنتين :

أعلم القصة وأحفظها، ولكن لقسوتها أتناساها يا أمي حتى لا أشعر باليتم وفقد الزوج في آن واحد.

لتبادرها أمها:

- فقد الزوج؟ هذا اختيارك أنتِ فتحمليه، رفضتِ ضباطًا وأطباءَ من أجل ذلك المحامي الفقير، وعلامَ؟ لا أدري، شعارات ومبادئ خداعة لا تسمن ولا تغني من جوع، وها أنتِ كالبيت الوقف لا زواج ولا طلاق..

خرجت أمل من حجرة والدتها وهي تهز رأسها يمنة ويسرى أن لا فائدة، مولية ظهرها لها وتركتها تكمل صخبها وتلك الإسطوانة المكررة على مسامعها، وقد أطلقت لدمعاتها العنان لتجري على وجنتيها كبنات ريحٍ خرجن لتوهن من اصطبل إلى فضاء شاسع بعد حبس سنين، لتتجنب نقاشها الأقرب إلى السفسطة والجدال العقيم، وهي تحفظ هذا الحديث المتكرر عند كل نقاش أو بالأحرى عند كل خلاف.

"ربما كان عليّ أن أعي جيدًا أن لكل قاعدة شواذ.. وأنني سأنال من ذلك الشذوذ نصيبًا. لطالما حلمت بعناق من أمي أو قبلة حانية على وجنتي كأيَّة بنت في عمري، ولكن لسوء حظي أُبتليت بأمٍّ قاسية متحجرة القلب لا

تهوى الأمومة ولا تدري عنها شيئًا، تدلل نفسها وحسب، وتهملني كما لو كنت قطعة أثاث ملقاة عندها لا هي تستغني عنها ولا تهتم بها!

تمنيت الموت مائة مرة بل يزيد، وددت لو أنها حتى ذهبت معي للمدرسة يومًا ما مثل بقيّة قريناتي، ولكن هيهات!

اهتمامها الأول والأخير بجمالها وحسب!

لم أكرهها وإنما توقفت عن حبها، لم تعُد تعيرني أي اهتمام، أي مدح، أي احتكاك.. انعدم الحوار، أو هكذا هي أرادت...

لا أستطيع أن أنسى يوم أن جاءتني أول حيضة وعندما هرولت إليها مسرعة لكي تمتص خوفي وهلعي من منظر الدم، فإذ بها تتجمل أمام المرآة ولم تتعب عينيها للالتفات إليّ، بل أشاحت بيدها باشمئزاز أن أذهب لأغيّر ملابسي فهذه (دورة)، خذلان وقهرة وشعور بالوحدة تملكني ولازمني، ولولا معلمة اللغة العربية أ/ منى شعبان التي كانت تعلمنا في حصة الدين كيفية الاغتسال وطرق التعامل مع فترة الحيض لهلكت ورب الكعبة.

حتى عند خطبتي وزفافي لم تتغير أذكر يوم زفافي؛ أنني تعمدت أن أنزل من السيارة أمامها؛ لأريها جمال هيأتي وأنا في كامل زينتي وجمالي؛ فلطالما عيّرتني بلون بشرتي الخمري، وكانت تردد على مسمعي أنني لن أتزوج وسأظل بلا فائدة، ما رأيت أبرد من نظرتها وقتها وجفائها!

رغبت في احتضانها ولكنها سلمت بيدها وابتعدت لتركب سيارة أخرى مع أبي دون احتضان، نعم، دون احتضان!

توقفت مشاعري تجاه أمي، لم أعد أحبها، وكذلك لم أكرهها، كتلك الزوجة التي يدعوها زوجها لمتابعة مبارة تنس معه، لا هي تدري عن قواعد اللعبة شيئًا لتحبها ولا هي تدري عيوبها لتكرهها فقط تتابع لينتهي الأمر برمته.

وجودي معها الآن برًّا بها وصبرًا عليها عسى الله أن يهديها وتتغير، أرجو ألا أكون مثلها يومًا ما، أرجو ألا أخذل ابني أو أسخر منه أو من لون بشرته، أرجو ألا أبخس نجاحاته يومًا ما مهما كانت بسيطة".

شعرت أمل بحركة خارج الحجرة فأغلقت كتيبها سريعًا في حركة متوترة وكأنها تخشى أن يطلع أحد على ما تكتب، وكأن فضفضتها بالكتابة شيء مخجل على الرغم من قناعتها التامة أنه ما دمت تقرأ وتطلع فلابد أن تكتب وتدرب يدك على التعبير عن ذاتك؛ فالكتابة ليست حكرًا على أحد سوى من أبَى، وأن من أوتي تلك المَلكة دون عناء، فقد فاز فوزًا عظيمًا.

لم تكن أمل مطلقة أو أرملة، بل إن زوجها خالداً سافر وانقطعت أخباره، أخبرها أنه ذاهب للمرافعة عن أحد وكلائه في الأسكندرية منذ قرابة الأربع سنوات، وانقطعت أخباره وأُغلق هاتفه النقال، شاركت قصته على صفحتها على الفيسبوك وعلى تويتر ولم تنجح في العثور عليه، لَم تعثُر له

على أثر، استغلت علاقات زوج أمها الراحل لكونه ضابطًا سابقًا في الجيش وسألت عنه في كل مكان يتخيله عقلك وعقلي وعقل يونس ابنه ذي الخمسة أعوام آنذاك، ولكن كل محاولاتها كانت تبوء بالفشل، عامٌ ونصف تبحث وتنشر عنه من حين إلى آخر حتى فقدت الأمل؛ فأحيانًا لا يكون للإنسان نصيبٌ من اسمه، فقد يكون "كريم" وهو أبخل من اليهود، وقد يكون "عادل" وهو أظلم من فرعون، وقد تكون أمل وهي أكثر المخلوقات يأسًا..

يئست وكيف لمثلها ألا تيأس! وقد رأت أهله أنفسهم نسوه وعدّوه ميتًا وتلقوا فيه العزاء!

عندما تراكم الإيجار عليها قررت أن تعود أدراجها وتعيش مع أمها على الرغم من علاقتهما المتوترة منذ الصغر، فتركت حي دار السلام الشعبي وعادت لحي منيل الروضة في شقة أمها التي ورثتها عن زوجها الكريم (طاهر)، وقررت أن تعمل بشهادتها في اللغة الإنجليزية من المنزل كمترجمةٍ خاصة؛ لتكفي نفسها وطفلها صاحب التسعة أعوام، أنثى قد شارفت على إتمام الثلاثين، تسعى لإنبات ولدها الذي بدأ يتساءل:

أين أبي؟ لماذا ليس عندي أب مثل باقي أقراني؟ لماذا تبكين وحدك ليلًا؟ لماذا ولماذا؟ وعشرات الـ لماذا تكاد تثير جنون أمل وتفقدها بهجتها التي تخفي وراءها جبالًا من اليأس والهم.

عرفت أمل بين الجميع بخفة ظلها وتواضعها، على الرغم من انطوائها الواضح داخل الأسرة، إلا أنها كانت بالخارج تشع بهجة ووُدًّا يقرب إليها كل غريب، اجتماعية ودود، ملامح هادئة بلون خمري رائع أشبه بالبرونز اللامع، عينان عسليتان واسعتان، أنف متوسط يعلو فمًا مكتنز الشفتين تزينه شامة بارزة ورثتها عن أبيها أسفل ذقنها يمينًا، جسدها متوسط الحجم من غير طول أو قصر، مصريّة بكل تفاصيلها.

ربما بانخراطها بالخارج كانت تعوض نقصًا ما قد ألمَّ بها منذ الصغر، تعوض الوحدة التي لازمتها منذ أن ولدت، يتيمة الأب لا إخوة لا أقارب، فقط زميلات الدارسة وحسب ومنهن اتخذت الصديقات وكلهن من طبقات اجتماعية متفاوتة.

"أذكر عندما جلست مع زميلاتي ليحدثنني عن رحلاتهن الصيفية السنوية، واحدة منهن قالت:

-هذا العام سنذهب إلى الإسكندرية كالعادة، فأبي يرفض أي مكان آخر فهو منغلق الفكر.. وأردفت أخرى تفتخر:

-نحن عندنا منزل بحديقة على البحر مباشرة "شاليه" في الساحل الشمالي. وثالثة تقول:

-نحن نذهب لشرم الشيخ كل عام على نفقة الفندق الذي يديره أبي..

فقلت محدثة نفسي:

-إن أخبرتهم أنني أذهب إلى فايد يوم في السنة سيلوكونني في فمهم كالعلكة، فأخبرتهن كاذبة بكل فخر وتبختر:

-نحن نذهب كل عام إلى جمصة لمدة أسبوع، لَم أكد أنهي جملتي حتى هَبَبْنَ جميعًا ساخرات مني!

"ويحي ماذا فعلت؟ جئت لأكحلها أعميتها!! هل لأن جمصة سيئة لهذا الحد؟"

وانفجرت معهن ضاحكة كي أخبئ ما بي من خجل.. أعلم أنهن سيتخذنني نكتة لهن طيلة الأسابيع القادمة.

لَم نكُن متواضعين ماديًّا، ولكن أبي طاهر لم يكُن يحب السفر، وكان يقضي أجازته الصيفية في البيت معنا وليجبر خاطري أنا وأمي كان يذهب بنا إلى فايد يوم في السنة وكنت أعده من أجمل أيام حياتي وأنتظره من العام للعام.

طبيعة الفتيات المراهقات السخرية من كل ما هو شخصي وشكلي، وهذا ما يسمونه الآن تنمرًا، أما أنا فلم أكن مثلهن كنت أطمح إلى المثالية رغم تقصيري، كانت تكفيني جرائدي وكتبي ومجلاتي للعيش في ملكوت غير ملكوتهن العادي، لا أحب ما يحببنه ولا آلف ما يألفنه، ذات مرة نعتتني صديقتي المقربة بالسذاجة قائلة:_ كفي عن سذاجتك هذه، لا وجود لمدينتك الفاضلة، إن ظللتي هكذا ستكوتين مادة للنصب والسخرية.

رغم بكائي وقتها وغضبي مما قالت إلا أنها جعلتني أفيق بعض الشيء."

قرأت أمل تلك الكلمات التي كتبتها منذ فترة ليست ببعيدة، مثبتة نظرها تجاه تمثال عروس البحر الذي يقابل شرفتها من جهة النهر والذي يعد واجهة لأحد أقدم محلات الأسماك في المنطقة، لطالما جلست تحت هذا التمثال وبثت له أحلامها الوردية وهي طفلة ومراهقة وحتى بعد أن صارت طالبة بالجامعة، عندما كانت تعود من المدرسة تقف تحته تتأمله وتتمنى لو أنها صارت حورية بحر لتكتشف قاع ذلك النيل الذي تمر عليه كل يوم في الغدو والرواح، تذكرت آنذاك والدتها التي كانت كلما رأتها تحته نهرتها وعنفتها وحذرتها منه لأنه تمثال عارٍ خادش للحياء، لم تكن أمل بفطرتها ترى عريًا فيه، بل كانت ترى جمالًا خياليًّا لا وجود له قد سلب لُبَّها.

منذ اختفاء خالد وقد شرعت في تدوين مذكراتها وممارسة هوايتها في الكتابة.

تذكرت تلك الأيام في مدرسة السنية الثانوية بنات، وابتسمت دون أدنى شعور منها موجهة نظرها إلى الشرفة مستحضرة كل تلك الأيام الخوالي، وكأن الشرفة هي شاشتها السينمائية التي تستحضر فيها تلك

المشاهد بجوار التمثال، تمنت لو أن يعود يوم واحد منها لتعيشه مرة أخرى بالتفاصيل نفسها دون ندم أو ملل.

لطالما رجا الإنسان أن يكبر ويبلغ سريعًا، وما أن يكبر ويحمل المسئولية تجده يتمنى العودة إلى الماضي على الرغم من علمه باستحالة ذلك، إلا إنه يتمناه بكل قوة، ولو علم باستحالة التمني وإمكان الرجاء لما تمنى شيئًا قط.

كانت تؤمن دائمًا بتلك المقولة ولا تدري أين قرأتها:

"إننا نأثم عندما نرجو في الصغر أن نكبر سريعًا، فيأكلنا الفضول لنصير بالغين، وما أن نكبر نندم ونشعر بالتلوث والزيف قد تملك منا؛ فنعود لنتمنى أن ليتنا ما كبرنا ولا رجونا الكِبَر!"

دخل يونس الحجرة بعد أن طرق الباب ثلاثًا كما علمته أمه، ولكنها لَم تنتبه له إلا وهو ممسك بالكتيب يطلع على ما كانت تقرأ، فإذا بها تنتبه وتجذب منه الكتيب بقوة قائلة: قلت لك ألف مرة لا تمد يدك على أشيائي الخاصة.

ليبادرها ساخرًا:

-ألف يا أمي مرةً واحدةً، أنتِ كلامك معي لا يتعدى الأوامر؛ كل.. اشرب.. صهٍ .. نم.. ذاكر صلِّ، بالمناسبة أنا أصلًا جئتك لنصلي العشاء سويًّا فوجدتك تنظرين إلى ذلك الرجل "العبيط" من الشرفة.

تنبهت أمل لكلام يونس ووجدت نفسها تتأمل الرجل دون قصد منها ظنًّا منها أنها تتأمل التمثال، وتذكرت أنها لم ترَ ذلك الأعمى اليوم ولَم تطعمه شيئًا منذ الصباح لانشغالها بعملها على الحاسوب، فقالت له مبادرة:

-تعال لنصلِّ، وذكرني أن أخرجك له ببعض الطعام والشراب، ولا تقل تلك اللفظة مرةً أخرى، سمعت!

ليرد بصوت منخفض غير مسموع وقد تركها ليحضر سجادة الصلاة:

-ليتني ما ذكّرتك..!

فقالت له متصنعة الحزم : لقد سمعتك يا "خايب الرجا" هلم ننهِ الصلاة ولتقُم بعملٍ صالح قبل أن تنام.

خرج يونس بصنية من المطبخ من "الإستانلستيل"، تحمل طبقًا من الأرز والدجاج وطبقًا آخرَ من سلاطة الخضروات، وكان يسير على مهل كمن يسير على زجاج متناثر، كما أخبرته أمه حتى لا تنتبه إليه جدته التي كانت قد انشغلت لمشاهدة مسلسل هندي في حلقتة الـ٢١٥!

وتكفلت أمل بصرف انتباه أمها عن باب الشقة بالجلوس معها ومشاركتها ما تشاهد، شقتهم من تلك العتيقة ذات الشرفات الطويلة بطابع الثمانينيات الهادئ، حوائط الشقة مهما نُظّفت تشعر أن التراب قد تناغم مع

ألوانها ونقوش أوراق الحائط الخاصة بها، أثاثها يبدو عليه أنه أثريّ ولكنه جراء قلة الاستعمال صار كذلك.

انتبهت أمها لها وقالت بلهجة استغراب ممزوجة بالسخرية:

-ليست عادتك مشاهدة التلفاز، ما لكِ هل أنتِ محمومة لا قدر الله؟!

ابتسمت أمل بتوتر محاولة أن تجاري أمها:

-عادي يا أمي، فقط أصابني الملل من الحاسوب والعمل، فقلت لمَ لا أشاركك مشاهدة التلفاز؟ وهمت إلى المطبخ قائلة: سأعد قهوة، أتحبين أن تشاركيني؟

ردت أمها وهي ممسكة بكوبٍ ما موجهة نظرها للتلفاز:

-لا، أنا أشرب الشاي، اذهبي لقهوتك ودعيني أكمل المسلسل.

تنفست أمل الصُّعداء وذهبت لتتفقد يونس فقد تأخر ولَم يعُد حتى الآن.

الفصل الثاني

لم يكن من السهل على سمية وفاة زوجها طاهر فقد تركها وحيدة في هذه الدنيا مع ابنتها الوحيدة أمل بعد زفاف أمل ببضعة أشهر، لم تنجب سمية من طاهر لعيبٍ فيه، ولكن لحبها له صبرت على ذلك وبعد الوفاة أصابتها الوحدة في سويداء قلبها، فابنتها الوحيدة علاقتها بها متوترة منذ الصغر والشقة واسعة عليها، تمنت لو أن تقنعها بالعيش معها، ولكن موقفها من زواجها من خالد كان كفيلًا بمعاداة خالد لها، فكانت علاقته بها لا تتعدى السلام العادي كالغرباء، يوصل أمل لها كل أسبوع حتى باب الشقة ويذهب لعمله، ثم يعود ليأخذها مرة أخرى بعد أن تنظف الشقة لأمها وتعد لها بعض الوجبات التي تكفيها للأسبوع القادم داخل مجمِّد الطعام، وهكذا استمر الأمر إلى أن اختفى خالد وانتقلت أمل للعيش معها، أحيانًا تنكر سمية ما بها من مشاعر فياضة تجاه يونس لكونه ابن خالد، ذلك العدو الذي اختطف منها ابنتها وأبعدها عنها أكثر مما كانت عليه من بُعد، ولكن سرعان ما تنسى وتتسلى به وبخفة ظله التي ورثها عن أمه حين انشغال أمه بإعداد الطعام أو العمل على حاسوبها، دائمًا هناك حاجز بينها وبين أمل، كأنها تحمّل نفسها ذنب يُتمها وعدم إنجاب إخوة لها وتخفي ذلك بالقسوة والشدة.

لطالما آمنت أمل أن عقوق الأبناء سببه عقوق الآباء أولًا، فكانت عندها قناعة بأن بعض الآباء والأمهات يظنون أن إبداء مشاعر الحب والحنان لأولادهم ضعف، فيحاولون إخفاءها بالقسوة والشدة، فيصنعون جدارًا وحاجزًا من فولاذٍ لا يمكن للزمن هدمه مهما حاولوا التغيير، ويصبحون كمن يحاولون ريّ العطشان بالحميم، فيعقّ بعضهم بنيهم ثُم يأتون ليشكوا من عقوق أبنائهم!

لم تكن أمل بالبنت العاقة المتمردة، فحبها للقراءة والاطلاع منذ الصغر ربّى فيها الجانب الإنساني، شدة أمها معها كانت دافعًا لتكون شيئًا مختلفًا عنها، لا مثيلَ لها، علّمها طاهر مبادئ التدين السليم، الصلاة والصوم، وأمرها بالحجاب بمجرد بلوغها، كان أقرب لها من أمها، عدّها ابنته حقًا، وإن كان شبهها لسمية الأقرب للتطابق هو ما يقربها إلى نفسه، لم يتعامل معها قط إلا على أنها ابنته.. نعم، كانت الغيرة بين سمية وأمل رهيبة، ربما لم تدرك أمل ذلك، ولكن مازالت سمية حب حياته وأمل هي ابنة عمره، حقًا مرآة الحب عمياء، تعمي المحب عن ذنوب الحبيب ومعاصيه مهما كانت كبيرة.

-لا أعرف لمَ كلما نظرت إليها تذكرتك يا سوسو؟!

قالها طاهر برقة بصوت ناعم مغنجًا سمية، وكل نظراته تتأمل أمل وهي تبكي من صعوبة امتحان اللغة الإنجليزية.

ردت بلا مبالاة:

-غريب، هي لا تشبهني إطلاقًا، أنا بيضاء وهي سمراء، أنا قصيرة وهي طويلة، لا تشبهني إطلاقًا، أنت تبالغ..

قاطعها متحمسًا:

-يا سمية أمل لم تترك منك شيئًا إلا وورثته.. بكاءك، تبسمك، ملامحك، عينيك، ذكاءك، خاصة بكاءك، كلما بكت أشعر أنني أراك عند أول مرة بكيتِ فيها أمامي، أتذكرين؟

-لا أذكر ولا أحب أن أتذكر، اشبَع بها.. قالتها بحنق وقامت بكل عصبية تاركة إياه، فأمسك بيدها قبل أن تتخطاه وقبّلها ثُم وضعها على قلبه قائلًا:

- ولكنني أتذكر ولم أنسَ بعد، ولن أنسى، أنتِ فاتنتي وحبيبتي ومجنونتي التي تغير عليّ من الهواء، ورفيقة دربي، أنتِ سوسو يا بنت!

فابتسمت رُغمًا عنها وجلست على رجله كعادتها وكأنها ابنته المدللة، فداعبت شعراته التي يشوبها الشيب على رأسه ناظرة إلى عينيه قائلة:

-لا تستفزني يا طاهر، أنا أعشقك حد الجنون، فلا تثِر جنوني وغيرتي..

فاحتضنها مقاطعًا:

_ قومي وهدئي من روع أمل ثم اتبعيني إلى غرفتنا، أحبك يا مجنونة.

خرجت أمل لتتفقد يونس؛ فالجو كان باردًا والسماء تكاد تمطر، تلحفت بخمارها وعباءتها وارتدت معطفًا ثقيلًا فوقهما، وأخبرت أمها أنها ذاهبة لشراء دواء ليونس من الصيدلية، وما إن خرجت حتى وجدت يونس نائمًا واضعًا رأسه في حِجر الأعمى، لم تشمئز أمل، ولكنها اضطربت لغرابة المنظر، واقتربت من الأعمى موجهة له الحديث وهي تنحني كي تحمل يونس: آسفة جدًا لا أدري ما الذي جعله ينام هكذا؟

فأجابها الأعمى بهدوء: أنا.

تعجبت أمل فلم تعتد منه مجاراة الآخرين في الحديث أو لم تستسغ استيعابه لما تقول ليجيب!

قالت باستفهام:

_ ماذا؟

فأجابها مسترسلًا كمن يتحدث مع شخص مألوف:

-أصر أن يطعمني بيده لأنني لم أعتد تناول هذا الطعام، ولم أعرف كيف آكله بدون ملعقة، وكان سيعود لجلب واحدة ولكنه خشي ألا يستطيع العودة، ولما غلبه النعاس طلبت منه أن ينام في حجري فاستسلم، لا تعاقبيه يا أم يونس فأنا من طلبت منه.

تعجبت أمل لبلاغة حديثه ورزانته واستودعته دون أن تنطق بكلمة واحدة سوى:

_حاضر، سلام.

عادت بيونس نائمًا كانت سعيدة ببطلها الصغير الذي لم يخيّب ظنها بها، واعتمادها عليه كان صوابًا، تحاول أن تنفذ ما قرأته في كتب التربية الإيجابية، بألا تتفه من قدرة وطاقة طفلها وتحمله المسئولية منذ صغره كي يصبح رجلًا لا شبه رجلًا. استقبلتها سمية بنظرة شك اعتادتها أمل، فسألتها بريبة:

-أين الدواء؟

ردت سمية بتوتر:

-هه أ.. أ..الصيدلي أخبرني أنه بخير ولا يحتاج لأدوية، فقط التدفئة والسوائل الساخنة..

صمتت سمية ونظرت لها نظرة شك قد اعتادتها أمل منذ سنين، وقالت مستفهمة:

-لم الولد نائم؟

-هه، نام في الصيدلية من طول الانتظار فإجراءات التعقيم والتباعد الاجتماعي تؤخر الناس بالصيدلية، مما جعلنا ننتظر دورنا طويلًا.

قالتها ودخلت حجرتها دون أن تنظر إلى أمها كي لا ينكشف كذبها.

كانت تعلم أن الكاذب لا ينظر في عين من يكذب عليه عندما يكذب، وإن نظر فهو فاجر.

ظلت تردد الاستغفار بلسانها بصوت مهموس كمن تتلو بعض الآيات، هي تعلم أن الله لن يعذبها مادامت تستغفر وتتوب.

"ذات يوم كنت أجلس أمام التلفاز أشاهد فيلمًا أجنبيًّا(Brave heart). وجاء أبي طاهر من العمل متأخرًا، وكانت أمي كعادتها مشغولة في الحديث في الهاتف مع إحدى صديقاتها، فدخل عليّ ووجدني أبكي على مشهد النهاية، فاحتضنني وطفق يربت على كتفي، بلا كلام، فقط يربت ويهدهدني كطفلة صغيرة كنت وقتها في الثانوية العامة، وخرجت أمي قدرًا فلم أشعر بها إلا وهي تقول بكل عصبية:

_ماذا تفعلان؟

فانتفض أبي مبتعدًا عني وقال بلهجة صارمة:

_ ماذا تظنيننا فاعلان، كفي عن شكك هذا والزمي حدك!

لأول مرة أراهما يتنابذان، هي ردت قائلة:

-ظنتماني نائمة، لا، أنا مستيقظة وأعلم جيدًا ما يدور حولي، وهو قاطعها: اخرسي.. وفجأة لطمها على خدها لطمة جعلتها تثور أكثر وأكثر وأقسم عليها إن كررت ما قالت فسيكون جزاؤها عسيرًا لن تتخيله ولن

تتحمله، تسمرت مكاني وكل تركيزي على أمي ونظرتها لي التي اختلطت بين اشميزازٍ وشك، ساءني ما رأيته وتثبت في ذاكرتي ولم أستطع نسيانه، ولكن دفاع أبي طاهر عني ضمّد ما بي من خدوش نفسية، فكان لي كالعسل الأبيض عندما يوضع على الجرح فيطيبه ويبرد ناره.

أذكر أنها سألتني ذات مرة وأنا في الجامعة عندما استيقظت مبكرًا لآخذ حمامًا باردًا قبل النزول كعادتي:

لما تغتسلين الآن؟ ولمَ لا تفعلين ذلك إلا وطاهر هنا، ماذا تفعلان يا قذرة من ورائي يجعلك تغتسلين صباحًا كمن كانت تنام في أحضان زوجها طيلة الليل؟!

في هذا اليوم من هول الصدمة فقدتُ النطقَ وظللت مذهولة مكتئبة، لا آكل ولا أشرب ولا أتحدث لبضعة أيام ألجمت الصدمة لساني، كيف لها أن تظن فيّ السوء هكذا؟ كيف لها أن تظن في حبيبها وزوجها أبي هكذا، كيف؟ وكيف؟ ولِمَ وألف لِمَ. أسئلة كادت تشلّني، والذي جعلني أنطق وأعود لأتعايش أنها جاءتني تراضيني وتطلب مني السماح على ما ظنّته بي، جاءت كطفل ضيع لأمه خاتم زواجها لا هي تستطيع تأنيبه وعقابه طوال الوقت، ولا هي تستطيع تجاوز الوضع لعدم نفع التعويض مهما بلغ.

سامحت وتناسيت كما أتناسى لها دائمًا ولكن لم أنسَ، حتى لا يطردها أبي طاهر كما سمعته مرة يهددها، وعندما سألني عمّا بي وماذا حدث أخبرته

أنني رسبت في أحد اختبارات الكلية فأخذني لنزهة نيلية مما زاد غضبها وحنقها وأكد شكوكها التي صارت تبني عليها حياة كاملة تعيش فيها وحدها".

أغلقت أمل كتيبها ونامت بعد أن دونت ذكرى يائسة ذكرتها بها نظرات أمها المشمئزة.

تذكرت مقولة طاهر لها:

-"الشخص الشكَّاك هو شخص قد ارتكب جرمًا لَم يكتشفه أحد من قبل، ويظن كل من حوله قد ارتكبوه، فيظل يشك ويبني على شكوكه حيوات كاملة من وحي خياله المريض، مصدقًا إياها كمن رآها رؤيا العين وعايشها، فلا يعود ليفرق بين الشكوك والحقائق ويكون للأسف مريض ب(البارانويا)".

*****

دخلت سمية حجرتها لتنام، ولكنها لم تنمْ وأطفأت الضوء وظلت تبكي على سجادة الصلاة ساجدة تدعو الله أن يغفر لها ما مضى بكل تواضع ورهبة:

-ربِّ اغفر لي وارحمني ولا تقبضني إلا وأنت راضٍ عني، اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا أمَتُك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت

أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

ظلت تردد هذا الدعاء ذارفة الدمع إلى أن تورمت عيناها ونامت مكانها.

ويح الإنسان، ضعيف! ذنب يوم يبكيه سنين!

الفصل الثالث

١٩٨٥

كان أيوب يحب سمية من كل قلبه، فهي تلك الفاتنة التي اختارها واختارته ورحل بها من الصعيد للقاهرة، بعيدًا عن أعين الأقارب والحاسدين، لأنها كانت هدف كل شباب بلدته لجمالها وصغر سنها، كانت وحيدة ويتيمة الأم، وزوجة أبيها تسيطر على أبيها سيطرة كاملة، فلما تزوجها أيوب أكرمها وفرح بها كفرحة الأمير الذي نال سيندريلا، شاب صعيدي في العقد الثالث طويل أسمر البشرة بأنفٍ حاد جذاب وعينين عسليتين وشعر مجعد، توفي أبوه متأثرًا بمرض السل وأمه بعده ببضع أسابيع بنفس المرض، باع كل نصيبه ، ورحل بعيدًا مع محبوبته، رحل للعاصمة "القاهرة" واتخذ شقة بحيّ منيل الروضة بالطابق الأرضي لأحد البنايات الراقية واضعًا كل ما يملك ثمنًا لها، ليظل بعيدًا عن أعين الناس وقريبًا من عمله في إحدى الشركات، مستمتعًا بهدوء الحي ورقيه، وتدريجيًّا انقطعت العلاقات مع أهله في الصعيد إلا في المناسبات والمواسم، تعرف في هذا الوقت على جاره طاهر، ذلك الضابط الهادئ الوسيم صاحب الملامح العربية الجذابة الذي يعيش بمفرده في الشقة المقابلة، كان طاهر منفصلًا عن

زوجته ويعيش بمفرده لأن أهله كلهم يعيشون في إيطاليا، فتقرّب منه أيوب وبسبب ظروف تغيّب الضابط في عمله لأيام وأسابيع تعوَّد ترك مفتاح الشقة لجاره أيوب وزوجته سُمية كي يطمئنوا على محتويات الشقة في غيابه من آن إلى آخر، ويدفعوا الفواتير ويطمئنوا على العصافير التي يأنس بها طاهر.

-لابد أن نذهب لطبيب يا أيوب، الرعشة وعدم التركيز والعصبية التي ليس لها مبرر لابد لها من طبيب، صرتَ تنسى كثيرًا ولا تتذكر إلا المعلومات القديمة، مازلت صغيرًا على كل ذلك.

قالتها سمية بلهجة آمرة، فتقبلها أيوب بنفور على غير العادة؛ فقد اعتادت منه الخضوع لها والمكوث تحت قدميها مطيعًا طائعًا..

_لن أذهب لأطباء، أنا بخير، ولا تفتحي هذا الموضوع مرة أخرى.

قالها بعصبية حادة تاركًا إياها وخارجًا من شقته ليقابله طاهر قدرًا.

فابتسم طاهر قائلًا:

-جاري العزيز أين تذهب هذا المساء منفردًا؟ ما عهدتك إلا مع زوجتك؟

رد أيوب بعدم تركيز:

_ أريد التمشية على الكوبري الخشبي وحدي واستنشاق هواء النيل.

رد طاهر بحماس:

-أنا أيضًا كنت ذاهبًا إلى هناك، أتحب أن أشاركك؟

فقبل أيوب على مضد محدِّثًا نفسه:

-ألم أقل لك وحدي أيها البارد؟!

ماذا بك يا أيوب، أخبرني، لم تعد كالسابق، ما عهدتك صامتًا..

استثقل أيوب الكلام وأشار إلى صدره ثم أردف قائلًا: قلبي يؤلمني يا طاهر، هنا يحترق ولا أدري كيف أطفئه.

- سلامة قلبك يا قلب أخيك. بالله عليك أرِح قلبي وأخبرني ما بك.

-قلبي يؤلمني على نفسي وعلى زوجتي وعلى الجنين الذي ينمو في أحشائها، لا أدري ماذا أفعل...

استوقفه طاهر ليجلسا بجوار النهر ويكملا الحديث.

-ها نحن أمام النيل، انظر لهؤلاء العمال يَطْلون ذلك التمثال الرائع لحورية البحر باللون الذهبي، لا أدري يا أيوب لمَ اللون الذهبي هو اللون الثابت لتماثيل الحوريات، ألا ينبغي أن تكون بيضاء شاهقة الطول وألوان ذيلها تشع بهجة كقوس قزح، اهدأ اهدأ وأخبرني ما بك، ألسنا إخوة، لا تؤلم قلبي أنا الآخر بغموض كلامك.

نظر إليه أيوب نظرة يائسة ثم ولّى وجهه تجاه النهر قاذفًا بعض الحصى في الماء على توالٍ بطيء محدثًا نفسه:

-أجئت بي إلى هنا لتتفقد تمثال عروس البحر، أم أنك تشتهي وجبة سمك من ذلك المطعم الباهظ، يا لك من رجل تافه!

أعاد طاهر سؤاله لمّا طال صمت صديقه:

-ماذا بك يا رجل، لا تقلقني عليك.

فتنهد أيوب ثم قال بصوت خافت أقرب للضعف:

- انظر يا طاهر عندي ورم على المخ وأحتاج لعملية عاجلة، ونسبة الشفاء ضئيلة، الشركة ستوفر لي الراتب إلى أن أتعافى وقد وكّلت لزوجتي قبض الراتب ولكن مصاريف العملية أنَّى لي بها؟ وكيف أدبرها، المسكنات تغتالني ولم تعد ذات فائدة... وانهالت الدموع على خديه، فخجل وخبّأ وجهه بين كفيه!

-الله المستعان، لا تقلق.

لم يجد طاهر ما يتحدث به سوى هاتين الكلمتين ثم احتضن صديقه وشاركه البكاء على ضفة النهر، ربما لا نملك حلولًا لمشكلات أحبتنا، ولكن مشاركتهم مشاعرهم، فيه من المؤازرة والإحسان ما يهون عليهم مُصابهم.

-أيبكي الرجل، يا طاهر؟ أنت تقرأ وتحب الكتب أخبرني.

قالها أيوب بعد أن كفكف دمع صديقه متأسفًا.

تنهد طاهر ثم أشاح بوجهه تجاه النهر:

- نعم، يبكي الرجل عندما يشعر بقهر الرجال، فلولا أنه أسوأ ما يشعر به الرجل ما استعاذ منه النبي صلى الله عليه وسلم، ويبكي أيضًا إن كان عاشقًا خُذِلَ!

هيا هيا لنعُد، قلّبت عليّ المواجع يا رجل، ذكرتني بالذي مضى..

فابتسم أيوب قائلًا:

_يبدو أن وراءك قصة حب حزينة يا صاح.

فدفعه طاهر ممازحًا:

_ لا حزينة ولا سعيدة أنا بلا ماضٍ، تزوجت عملي وأنجبت منه مهمات رسمية صغيرة! انظر للتمثال بات رائعًا على الرغم من ذهبيته الكاذبة.

-لن يلفت نظر الزبائن ليلًا إن كان غير ذهبيّ، ألم ترَ إلى العروس التي ترتدي الذهب في عُرسها تجملًا ولفتًا للانتباه، هل رأيت عروسًا ترتدي عقدًا أو قلادة من ألوان الطيف؟!

-لا يا فالح، ولكن عرائس الأغنياء يرتدين الألماس وبريقه يكون أشد بهجة مما تتخيل.

-لا أريد أن أتخيل، أنا أحدثك عمّا كنت أراه عندنا في الصعيد عندما كان لا يُرى من العروس إلا كردانها فقط.

فضحك الاثنان وظلا يتمازحان طيلة الطريق.

بعدها بيومين، جاء طاهر بثمن العملية والعلاج، وأعطاه لصديقه، امتعض أيوب ورفض وتمنع بشدة، ولكن مع إلحاح طاهر قرر أنه إذا أخذ المال سيوقع له تنازلًا عن الشقة حتى يضمن حقه، وبعد محادثات طويلة ومناقشات وافق طاهرعلى مضد.

وكان لابد من إعلام زوجته بحجة لغيابه الذي قد يطول، فكذب عليها وأخبرها أنه ذاهب لسفر خاص بالعمل، وسيغيب قرابة الشهر وتركها بأمانة طاهر، ومن يومها لم يعُد أيوب.

بعد غيابه بحوالي شهرين، وبعد أن بحثت عنه وكلفت طاهر بالبحث عنه، جاءها طاهر وأخبرها بحقيقة مرض أيوب وعمليته الجراحية، وأنه كان يذهب ليطمئن عليه يوميًّا عدا الأيام التي عنده فيها عمل، ولما غاب عنه أسبوع لمهمة رسمية، عاد للمستشفى فلم يجده، سأل عنه فأخبروه أنه وقّع على وثيقة خروج ورحل، بحث عنه في كل مكان يمكن أن يكون فيه، فلم يجده، أبلغ الشرطة ولم يجدوه، وقيدوا المحضر على أنه مفقود!

وقع الخبر عليها كدلو مليء بالماء المثلج، فانفجرت تبكي كطفلة قروية تائهة تركها أبواها وسط المدينة ورحلا، تبكي على ما فعله بها أيوب، كيف له أن يخبئ عليها أمورًا مصيريّة كتلك؟ كيف له أن يتركها وحيدة وليس لها قريب أو ولي حميم، لِمَ لَم يصارحها لتشاركه ألمه..؟

أثارت سمية طاهر ببكائها واحمرار وجنتيها وضعفها الفتان وشعراتها اللائي انسدلت على وجهها واختلطت بدموعها فابتلت كأنها تحت قطرات المطر.. اقترب منها على استحياء ووضع يده المرتعشة على كتفها، ولما لم يجد منها نفورًا مدّ ذراعه واحتضنها بحنان وظل يهدهد فيها كطفلته، في تلك اللحظة أحسّت سمية وكأنها بين يدي أيوب لا طاهر، فأرخت رأسها على صدره تبكي وتذرف الدموع بكل ما أوتيت من ذرفٍ، فضمها طاهر بحنان مضاعف مغمضًا عينيه، فاقتربت أنفاسهما إلى أن اختلطتا، والتحم الجسدان في غفلة استمتاع هيّأها لهما ثالثهما الملعون، فكان ضعفهما كبيرًا أمام عواصف الفطرة، فنالا من رحيق المتعة المحرمة قسطًا.

بعد أن أفاقا من سكرة ما فعلا، لطمت سمية خديها وهرولت إلى المطبخ تبحث عن سكينٍ لتقتل نفسها، ولكن طاهرًا هدّأها وظل يعتذر ويكرر اعتذاره نادمًا على ما حدث ووعدها أن يصلح ما اقترفه ووعدها أنه سيعوضها ولن يخذلها..

لَم تبتعدْ سمية عنه ولم تتخذ حاجزًا بينها وبينه، ولكن ظل الأمر غير مفهومٍ، فطاهر ظل قريبًا منها ولا يعلم أيحبها أم يتعاطف معها، أيتمناها زوجة أم يتمناها عشيقة فقط؟

اقتربا من بعض أكثر وأكثر صارت حياتهما كزوجين بلا عقد أو جماع، خلا بعض الأحضان والقبلات المسروقة، يتناولان الطعام سويًّا يخرجان

ويتنزهان سويًّا، حتى وضعت سمية ورزقت بأنثى أسماها طاهر أملًا "أمل أيوب عبد الرحيم" متيمنًا بوجهها الجميل الذي بثّ فيه أمل أن يجتمع بحبيبته سمية في الحلال، لقد تولد بينهما حب وعشق لَم يذقه طاهر من قبل. فأقسم أن يفعل ما في وسعه كي لا يخسر هذا الحب، ويحافظ على حِله ونقائه.

وبعد مرور أربع سنوات من تاريخ اختفاء أيوب جاء طاهر سمية بعقد تفريق بينها وبين أيوب موقّع من المحكمة.

أربع سنوات يكتم طاهر طبيعته كرجل عن سمية، أربع سنوات تتحمل سمية النوم بمفردها كأنثى لم يُلهِها إلا تلك الصغيرة "أمل"، كانت أمل كعقبة أمامها تذكرها بأيوب الذي ذهب ولم يعد، ورثت لونه القمحي وخفة ظله وهدوء طبعه، أيوب الذي خبّأ عنها تفاصيل مصيريّة وأعطاها الفرصة لقربها من طاهر إلى أن ارتكبت كبيرة تندم عليها كلما تذكرتها وتشعر بغصة تتملك قلبها وحلقها سويًا.

كانت سمية تعامل أمل بكل قسوة وشدة وكأنها تعاقبها على ذنب أبيها أو كبيرة أمها، كان لا يرحمها من بين يديها إلا طاهر وتدليله لها كابنته وأكثر.

عقد طاهر على سمية وباع شقتيه، شقته والشقة التي تعيش فيها سمية التي تنازل له عنها أيوب ونقل سمية وابنتها للعيش معه في شقة جديدة كبيرة في الحي نفسه، ولكن في مكان أهدأ يطل على النيل مباشرة من الجانب

والواجهة بداخل أحد الشوارع الهادئة، وبسبب تعلقه بالدور الأول أصرّ أن تكون الشقة الجديدة في الدور الأرضي العلوى، بحيث يكون باب الشقة قريبًا من باب العمارة ومن سكن البواب ليسهل على سمية الإتيان بطلباتها وحاجاتها في غيابه.

الفصل الرابع

-أمي، ماذا حدث أمس؟

سأل يونس أمل متثائبًا، بعد أن استيقظ من نومه.

فأجابته أمل وهي جالسة أمام الحاسوب تعمل:

_ هناك شيء اسمه صباح الخير، فأرد عليك وأقول: صباح النور، فترد عليّ وتقول: سأذهب لأتوضأ وأصلي، لكن أسئلة الصباح هذه ليس لها إجابة الآن.

فرد يونس بحنق:

-أمي لِم كل هذا؟ قولي صباح الخير وأنا سأفهم مباشرة!

أحست أمل بالخطأ؛ فقامت وقبّلته وكأنها تعتذر له قائلة:

-صباح الخير يا سيدي!

فأجابها وقد هم ليترك السرير:

-صباح النور يا ست أمي.

خرج من الحجرة لدورة المياه وخرجت هي وراءه للمطبخ لتجد المطبخ كما تركته أمس، واستنتجت أن أمها لم تستيقظ بعد لتعد لنفسها الشاي بالحليب كعادتها، فذهبت لحجرتها تطرق بابها، فلم ترد عليها،

حاولت فتح الباب لم ينفتح، فعلمت أنه مقفل بالمفتاح، فأسرعت إلى جوالها تتصل على جوال أمها، لترد أمها بكل هدوء:

-أنا في البنك يا أمل أنهي بعض الإجراءات الخاصة بالمعاش، هل هناك شيء؟

ردت سمية بارتياح:

_ لا، فقط قلقت عليكِ، لمَ لم تخبريني يا أمي؟ حقا أنا قلقت عليكِ؟

-كتبت لكِ ورقة صغيرة مثبتة على باب غرفتي.

فذهبت أمل إلى باب الغرفة ووجدت الورقة ولكنها لم تنتبه إليها.

-نعم نعم، رأيتها، لم أنتبه لها، هل ستتأخرين؟

-نعم؛ فرقمي في الانتظار ١٤٥ ولَم يدخل إلا عشرة. أنا دخلت إلى أحد المطاعم لأتناول الإفطار والدواء، وسأعود للبنك سريعًا، افطري أنت ويونس.

_-حاضر، تأمرين بشيء؟

-سلامتك، لا تنسي إخراج القمامة، الزَّبَّال ميعاده اليوم.

تأففت أمل من كلمة زبَّال قائلة:

-حاضر يا أمي اسمه عم عصام، وليس الزبال.

-خيبة عليكِ أنتِ وعمك عصام. وأغلقت الخط دون سلام.

انتبهت أمل لغلق الخط قائلة:

-أكل الأمهات يغلقن الخط بلا سابق إنذار هكذا، أم أنها أمي فقط؟

فأجابها يونس وقد أنهى صلاته: كلهن، أنتِ تغلقينه دائمًا بلا سابق إنذار معي!

فنظرت له قائلة باستغراب:

-ولد، كيف تكلمني هكذا؟

-من فمي!

قالها ساخرًا، هادئًا ثم أردف:

-ألن نفطر اليوم؟

فابتسمت واحتضنته مدغدغة إياه أسفل ذراعيه:

-لا، سنصوم.

فقهقه قائلًا:

-كفى يا أمي أنا حقًا جائع، تعالي لنحضر الإفطار سويًا ونتناوله مع عمو...، فهدأت أمل وصمتت لبرهة فأكمل يونس:

-حقًّا ما اسم الرجل الأعمى ذلك، لَمَ أقل عبيط كي لا تغضبي؟

-حقًا لا أعلم اسمه حتى الآن، إنها فرصة خروج جدتك.. وصمتت وشردت ثُم نظرت ليونس وجاءتها الفكرة المجنونة نفسها.

-نستضيفه يا أمي بالله عليكِ، بالله عليكِ لن أخبر جدتي، لن أخبرها، أرجوكِ أرجوكِ.

قالها بإلحاح الأطفال وتوسلهم الذي يجبرك على تقبل أي أمر مهما كان جنونيًّا.

-ألن تقول عليه عبيط، وتشمئز منه؟!

-لا لا، لقد أحببته، إنه طيب وحنون وحكى لي قصة جميلة ونمت بعدها أمس.. صحيح ماذا حدث بعدها؟

- دعك من ذلك الآن هيا نحضر الإفطار لندعوه قبل مجيء جدتك.

-حالًا.

قالها متحمّسًا.

ليس هناك أكثر حماسة من الأطفال وشغفهم للحياة. قلوب لَم ترَ من الحياة ما يضرها بعد، مازالوا أنقياء بلا جرح أو خيانات أو حتى فقدٍ حقيقي.

خرجت أمل لتشتري الخبز كعادتها وتعمدت أن تلقي السلام على الأعمى، فرد عليها متهللًا:

-وعليكم السلام أم يونس، كيف يونس الآن؟

ردت ببشاشة ولطف جديدين عليها في التعامل مع رجل غريب واقتربت منه:

-بخير، ولكن له طلبًا عندك ولا تردّه أرجوك.

-طلب؟ مني أنا؟

وكأن الأعمى أدرك للحظة أنه لَم يطلب منه أحد شيء منذ أمد طويل، وماذا يُطلب من مثله؟

-نعم، هو يريدك أن تتناول إفطارك معنا، إذا سمحت لا ترده!

فرح الرجل وابتسم، ولكن لم تتبين لها ابتسامته بسبب كثافة لحيته وشعره.

فسألته:

-ستأتي؟

-نعم، ولكن أخشى على بيتكم مني.

فطنت أمل ما يقصد، ولكنها أدركته قائلة:

-بل نخشى على بيتنا إن لم تزُرنا اليوم.

فاستملح حديثها وهمَّ ليقوم معها، ولكنها أخرته لتأتي بالخبز وبعض الحاجات.

عندما رجعت بالخبز وجدته واقفًا ومرتديًا تلك السترة التي أعطته إياها، وقد أعاد شعره إلى الخلف، ووجدته يحاول تهذيب لحيته المتلبكة؛ فرقَّت لحاله فسارعت تسبقه إلى المنزل دون أن يشعر بها، وأرسلت يونس ليستجلبه ويرشده إلى مدخل البناية ذي الأربع درجات العريضة الرخامية، فهي استحت أن تمسك يده.

استقبلته أمل بتوتر وشغف جديدين عليها:

-أهلًا وسهلًا أنار بيتَنا مجيئُك. ثُم أغلقت الباب، فانتفض الرجل قائلًا:

-شكرًا لكِ.. قالها برهبة وكأنه يخشى غلق الأبواب.

أجلسه يونس على السفرة، وشرع في مناولته الطعام ومساعدته في الأكل، وأمل تنظر إليه كمن تنظر إلى لوحة فنية من ذلك الفن التجريدي غير المفهومة.

سألته أمل بتوجس: ما اسمك؟

فسكت الرجل وهدأ فكه عن مضغ الطعام، وابتلعه ببطء ثم قال بتيهٍ:

_ لا أدري.

فسكتت أمل مصدومة.

وردّ يونس بتعجب وهو يبتسم ساخرًا:

-كيف؟ هل هناك أحد لا يعرف اسمه؟

رد الرجل وقد ترك الخبز من يده:

-نعم، مادمت أنا لا أعرف، فيوجد من لا يعرفون أسماءهم.

ضحك يونس ولم تبد أمل أيّة ردة فعل سوى الصمت.

-حضرتك غريب جدًا يا عمو.

قالها يونس وهو يتناول شطيرة الجبن الرومي.

استأذن الرجل للذهاب فسمحت أمل ليونس بمرافقته، ولكن أمل لم تسترح لكلامه، أحست أنه يخفي أمرًا ما.

بينما همّ يونس للخروج من باب الشقة وجد جدته في وجهه فتجمد مكانه كمن رأى عفريتا.

قامت أمل لتدرك الموقف مسرعة، وقالت ليونس بلهجة مصطنعة:

-هيا اذهب ووصل عمك وتعالَ بسرعة.

ونظراتها تترنح بين عيني أمها وعيني يونس تفرك كفيها في بعضهما من فرط التوتر، فهم يونس وأسرع يقود الرجل للخارج.

-هل لي أن أفهم ماذا يحدث في بيتي؟

قالتها سمية بحزم وغضب مكتوم قد أشعل وجهها الأبيض احمرارًا.

انتظرت أمل اختفاء الرجل ويونس عن ناظريها وسحبت أمها للداخل بهدوء، وقالت بتودد:

-كان يحتاج لدورة المياه فرافقه يونس وكنا نتناول الإفطار، فأفطر معنا.

-أفطر معكم؟ هل جننتِ؟ هل تعلمين مدى نظافته وخلوه من الأمراض والأوبئة، لربما كان جربانًا وتسبب لكم بالعدوى؛ ابتعدي عني.

قالتها باشمئزاز شديد وبصوت عالٍ مليء بالعصبية، منتزعة يدها من بين يدي أمل، وذهبت إلى دورة المياه لتغسلها بعد أن انتزعتها بتأفف، وتذكرت أن الرجل كان بالحمام، فصرخت:

_أمل تعالي عقمي الحمام حالًا، ألا تكفي الكورونا وما تفعله بنا من رعب، لابد أنكِ حقًّا جننتِ.

فهرولت أمل تنظف الحمام وتركت أمها تكمل الصراخ وهي تغسل يديها على حوض المطبخ.

لَم يمر اليوم بسلام، طوال اليوم تأنيب لأمل على فعلتها تلك من أمها لدرجة جعلتهما تنفصلان عن تناول الطعام باقي اليوم.

أحست أمل بتأنيب الضمير لتخليها عن الرجل فضلًا عن إحراجه، فصوت أمها كان عاليًا لدرجة تُسمِع الجيران جميعًا، وبالتأكيد الرجل سمع كل كلمة.

تكرر موقف غياب سمية لذهابها لمقرأة في الجوار بمنزل إحدى صديقاتها، فبعد أن أُغلقت المعاهد القرآنية والمساجد بسبب الاحتياطات الأمنية والطبية المكثفة لمواجهة الفيروس المستجد (كوفيد ١٩) لم يعد هناك سبيل للحفظة من كبار السن إلا أن يجتمعوا خلسة في أحد المنازل، أما الشباب والصغار، فكان الإنترنت وبرامج التعليم عن بعد هي الحل الأمثل لهم.

تكررت مرات مشاركة الرجل لطعام أمل ويونس على الرغم من خطورة الوضع، ولكنهما تعلما من أول مرة فكانا حريصَين ألا يُكشف أمرهما أمام سمية.

-أمي لقد أحببت عمو هذا جدًّا، وأريده أن يعيش معنا.

-صدقني يا يونس أعلم وأرى ذلك بعيني، تعلقك به، انسجامك معه، حديثك وضحكك، حتى نومك انضبط ولم تعد تنفزع كالسابق، ولا أخفيك سرًّا، فأنا أيضا تعلقت به وأشعر أنه صار واحدًا منّا. ولكن جدتك من الممكن أن تفقد صوابها إن لمّح لها أحد بذلك.

-ألا ينفع أن نجعله ينام هنا بدلًا من النوم في الشارع؟ والله أشفق عليه من الشارع والتراب.

ابتسمت برقة ورق قلبها لنقاء ولدها وبراءته وقالت وقد تلألأ الأمل في صوتها:

-اصبر يا يونس؛ فلعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا، أنا أيضًا يسوءني ذلك جدًّا، ولكن الله المستعان سيدبر الأمر كيف يشاء.

الفصل الخامس

جلست أمل على حاسوبها تتصفح حسابها على الفيسبوك بعد أن أغلقته شهرين، تمر على خط المنشورات مرور الكرام بملل اعتادته بسبب تشابه المنشورات وقت الحظر (حظر المواطنين من الخروج عن منازلهم لخطورة العدوى) فتقريبًا، كلها كانت تتحدث عن الفيروس المستجد، فانقسمت المنشورات آنذاك بين ثلاثة أنواع، أول نوع: منشورات المحذرين المتشائمين المتنبئين بنهاية العالم، والنوع الثاني: الذين ينشرون نسب الوفيات ومعدل حالات الإصابة وحالات التعافي وأخبار الإصابات في العالم كله، والنوع الثالث: المنشورات الساخرة من الوضع برمته، أصحابها أولئك الذين يضربون بكل ما يُقال عرض الحائط ويؤمنون بنظرية المؤامرة!

وهناك النوع الرابع الذي يكتب الأدعية ويبث روح الأمل وينشر تجارب حالات التعافي، خصوصًا بعد قرب انقضاء مدة الحظر وعودة الحياة جزئيًّا للشوارع والشركات.

وقدرًا، قابلها منشور ممول الإعلان يتحدث عن المشرّدين، وأن هناك مجموعة من الشباب أنشأوا دارًا للعناية بهم إبان فترة الحظر، وسط هذا الزخم عن الفيروس الجديد، كان لابد أن يلفت نظرها منشورٌ مختلف،

وبسبب انشغالها بموضوع الأعمى فانتبهت وبشدة، وكأن الفيسبوك يقرأ الأفكار، إن فكرت في شراء هاتف (هواوي) جديد، فستجد كل إعلانات الهواتف عن ماركة (الهواوي!) إن فكرت في أن تتبع حمية غذائية ما بسبب ما فعله بك الحظر والمكوث بالمنزل، تجد إعلانات مراكز التخسيس والقهوة الخضراء تملأ خط المنشورات!

وجدت أمل رقمًا للإبلاغ عن أيّة حالة تشرد، وفور الإبلاغ سيذهب إليه الشباب لإنقاذه، فجأة خفق قلبها وأحست أنها وجدت ضالتها، فأسرعت وحفظت الرقم على هاتفها، واتصلت به فوجدته انتظارًا.

كررت الاتصال مرات عدة والخط مازال منشغلًا؛ فقررت أن تؤجل الاتصال في وقت لاحق.

رن جوالها بعد تركها له ببرهة فوجدت رقم الدار فسارعت بالرد:

-ألو، السلام عليكم..

-وعليكم السلام أهلا بحضرتك، هل لي بمساعدتك؟ ونعتذر عن انشغال الخط!

-عفوًا، عندي حالة لرجل مشرد كفيف، أود الإبلاغ عنها، ولكن قبل الإبلاغ لي شرط وحيد.

-املي عليّ البيانات والعنوان، وما شرطك يا أستاذة؟

-أن أتكفل بجزء من إعانة الرجل وأن أعرف مكانه لزيارته.

سكت المتصل لوقت قصير كمن يشاور أحدًا في الأمر ثم رد:

-املي عليّ البيانات والعنوان، ولك ما شئت.

-جزاك الله خيرًا، أسعدتني.

-وإياكم، البيانات يا أستاذة.

أملته أمل البيانات وهي تشعر بالحماسة، كمن كان يبحث عن ضالته ووجدها أخيرًا.

أسرعت إلى يونس تخبره بما فعلت بكل سرور، سرعان ما تبدلت لهجتها من السرور إلى الفتور عندما لاحظته متجهمًا، وما أن أنهت كلامها حتى تركها ذاهبًا إلى حيث تجلس جدته أمام التلفاز، تعجبت أمل من فعلته، وراحت وراءه ونادت عليه لم يرد، فزادت حدة ندائها له:

_يونس، تعالَ إلى هنا حالًا.

-ماذا حدث، كان معكِ للتو. قالتها أمها باستغراب.

ردت أمل بتوتر:

_ أريده في أمر ما بخصوص المذاكرة.

-أيّة مذاكرة نحن في إجازة؟ اتركيه واذهبي لعملك.

عادت أمل إلى حجرتها في حيرة من أمرها كالتائهة، لم يكن من السهل على يونس أن تخبره بكل سهولة أن الأعمى سيختفي من حياته، تعلق يونس بالرجل وصار يألفه ويألف وجوده أمامه كل يوم، جلس يونس وقد

تحجرت الدموع في عينيه، هو يحب الرجل ويحب التغيير الحاصل في حياته بسببه، ولكن ها هي أمه تسعى لإنهاء ذلك الحب بكل قسوة، هكذا شعر وحدث نفسه.

قال محدثًا نفسه: تعلمت من أمها وصارت تتشبه بها، حتى القسوة أخذتها منها، واأسفاه يا أمي، كنت أظنك غير جدتي.

قاطعته جدته صمته المتكلم قائلة:

_ما الأمر، لم اختلفت مع أمك؟

فراعه السؤال وهمّ ليخبرها، ولكنه تذكر أن أمه قالت له أن المجالس أمانات، ولا ينبغي إفشاء الأسرار أبدًا، فأردف قائلًا:

_ تريدني أن أراجع المنهج القديم وأنا ليست لي طاقة لذلك..

ربتت على كتفه قائلة:

_ دعك منها، أمك طيلة عمرها، ترى أن المذاكرة أهم من أي شيء.

-وأنتِ يا جدتي ماذا ترين؟

شردت لسؤاله ثم أجابته:

-أرى أن العمل لكسب المال أهم من أي شيء، لأن المال أهم شيء في الوجود، به نشتري راحتنا ورفاهيتنا، به نمتلك مكانتنا ونحقق رغباتنا.

وكأن يونس لم يفهم، ولكنه استوعب أهمية المال وأنه أفضل من المذاكرة بأيّة حال.

فقال مباغتًا: وكيف سنعمل بدون أن نحصل على شهادة أولًا عن طريق المذاكرة والنجاح؟؟

فانتبهت له قائلة:

_مشاكس كأبيك، أغلق الموضوع وكفاك ثرثرة.

زادت صعوبة الأمرعلى أمل فكونها تتخلى عن الرجل بهذه السهولة يشعرها بالذنب، ولكنها أدركت في نفسها مشاعر غريبة لأول مرة تشعر بها تجاه رجل غير خالد، عاطفة ما تجذبها، قلبها يخفق بشدة عند رؤيته، تحلم به دائما وهو بصير ويبتسم لها، لم تعد تدري ما حل بها فآثرت الابتعاد بشكل غير مباشر؛ لتحفظ قلبها.

اسيقظت أمل على رسالة من أحد الشباب العاملين بدار الرعاية فحواها أنهم آتون لاستلام الحالة بعد الظهر، انقبض قلبها، ولكنها كانت صلبة كمن لا تخشَى أيَّة فاجعةٍ كأنَّ كل الذي تخشاهُ قد لحِقَها.

أرادت قبل أن يأخذوه أن تبلغه بلطف وتهيئه نفسيًّا للأمر فإن الأمر حقًا جلل، أبلغت يونس برغبتها في إبلاغ الأعمى بأمر دار الرعاية ولكن عن طريقه هو باعتباره بطلها الهمام ورجلها الأوحد الصغير، تحجرت دمعات يونس قبل أن يرضخ لما تريد أمه، فهي وعدته أنها ستزوره من آن لآخر وتصطحبه معها، فكان ذلك بمثابة المخدّر الذي تحقن به قبل أحد العمليات الجراحية.

لم يسرع كما أمرته، طلب أولًا الذهاب للحمام لأخذ حمامٍ منعشٍ، وطال حمامه هذا كمن ينظف أرضًا زراعية من الطين، وبعد خروجه المتباطئ وقف أمام المرآة مطولًا كالعمياء التي تتكحل استعدادًا للتسوق، فأمسك بفرشاة شعره ببطء وأخذ يصفف في شعره بروية كمن يصفف لطفل رضيع، ثم وضع الفرشاة ذاهبًا إلى سجادة صلاته وفرشها تجاه القبلة وعزم على أداء صلاة الضحى التي لم يركعها من قبل، وأمل تراقبه بتأفف وحنق.

أنهى يونس صلاته ليجد أمل أمامه وقد احتقن وجهها جراء بروده المتعمد، فخاطبته وقد لفت ذراعيها حول خصرها تمامًا كما يفعل هو عند عناده معها على أحد الأمور:

_ تقبل الله يا شيخ يونس، أليس حري بك الإسراع قليلًا؟

-حالًا، يا أمي، ولكن لمَ كل هذا الغضب، أتكرهين صلاتي ونسكي؟

-بل أكره برودك!

فأتبعت بغضب:

_ ولد! أسرع لقد نفد صبري معك!

-حاضر حاضر يا أمي لا تنزعجي هكذا، أنا ذاهب إليه.

همّ يونس بالخروج وهو يتلكأ متعمدًا، مما أثار غضب أمه وحنقها. فأشارت إليه بسبابتها ناحية الباب متحدثة بغضب: أسرع يا ولد!

فأجابها مدعيًا الهدوء:

_ قُلنا حاضر.

فتح باب الشقة ثم خرج إلى فناء البناية ثم وقف مكانه، وهي تراقبه من داخل الشقة:

_ما لك توقفت؟ قلت أسرع..

فخرج مهرولًا إلى مكان الأعمى فغاب بعض الوقت ثم عاد إليها متحدثًا بأنفاس لاهثة:

_ أمي إنه ليس بالخارج.

وكأنها لم تسمع:

_ ماذا؟ لا أفهم، اهدأ وتحدث..

-ليس بالخارج، بحثت عنه فلم أجده، ركنه فارغ تمامًا إلا من أشيائه.

فقامت إلى خمارها وعباءتها ترتديها بتوتر، شعرت ببرودة تسري في جسدها، ضربات قلبها تكاد تشق صدرها شقًّا، أوصالها ترتعد، وجهها امتقع كمن سمعت خبر وفاة عزيز توًّا. الجو ربيعيٌّ مشرقٌ، ولكنها لم تعد تشعر إلا بالبرد.

خرجت إليه وقدماها ترتعشان، وصدق يونس، فهي لم تجده، وجدت بعض أشيائه كالكوب والطبق والمعطف الذي أعطته إياه، وكأنه هرب وابتعد قبل أن تبعده هي بيديها..

أخذت تسأل الجيران عنه، منهم من تعجب مما تفعل ومنهم من تعاطف معها وحاول يبحث معها.

منيل الروضة منطقة هادئة، معالمها محدودة، معلومة يستطيع المرء أن يجوبها بحثًا في ساعة واحدة.

عادت من بحثها مهترئة مهلهلة تبحث عن أقرب مقعد لتجلس عليه وتلتقط أنفاسها، لتجد أمها بانتظارها في بهو الشقة مع غريبين وقد لاحظت وجود شاحنة غريبة المنظر أمام البناية، ففطنت أنهما مندوبا دار الرعاية قد أتيا لأخذ الرجل. فاخبرتهما بما حدث.

-الحمد لله؛ جاءت من عند الله.

قالتها سمية بلهجة شامتة. فالتفتوا جميعًا إليها، فقال أحد الحاضرين وقد وقف من مجلسه:

-لم يعد لنا نفع الآن، إن عاد أخبرينا يا أستاذة أمل.

فأردف الآخر:

-هل هذه أول مرة يختفي من هنا؟

فنظرت إليه أمل بامتنان على اهتمامه قائلة: نعم، هذه أول مرة، لم ينتقل أبدًا منذ أن جاء إلى هنا.

فأردف وكان يبدو عليه التفكير: ربما خُطِف من أحد عصابات سرقة الأعضاء، أو عصابات الشحاذة، هذا عملهم هذه الأيام مستغلين انشغال

الدولة بكورونا، يختطفون المشردين ويستغلونهم، إما في سرقة أعضائهم وإما اصطحابهم للشحاذة والتسول.

امتقع وجه أمل وبادرته متسائلة:

_ هل هذا ممكنٌ؟

- مع الأسف، بل منتشرٌ جدًا.

- والحل؟

-إن أردتِ فابحثي عنه، وإن أردتِ دعكِ من القصة كلها فما أكثر المشردين المفقودين!

فردت سمية بحنق:

-تبحث عمّن؟؟ لن تبحث عن أحد، الأستاذة أمل مترجمة وأم، وليس لديها وقت لهذا، نشكركم على حسن تعاونكم.

كمن أصدرت فرمانًا مباغتًا، انقبض قلب أمل وكادت تبكي لقسوة القرار المباغت، فشكرت أمل للرجلين ما فعلاه، ورحلا تاركين أمل في حيرة ووجع كادا أن يفتكا برأسها وقلبها معًا.

-اسمعي يا أمل، لقد طفح الكيل، أفيقي لعملك وابنك وبيتك، يكفي ما حدث، تحملت تهورك مع ذلك المجذوب الأعمى، واهتمامك المقرف به، تحملت كلام الجيران وتهامزهم علينا، لولا علمي بك وبحبك وإخلاصك لخالد لقلت أنكِ مغرمة به، أفيقي وعودي لحياتك..

كانت سمية تتحدث بعصبية وغضب شديدين، مما جعل أمل تؤثر السلامة وتهز رأسها بشكل رأسي، وعيناها قد اغرورقا بالدمع، فابتلعت ريقها، ثم قالت ومرارة الألم قد تحشرجت في حلقها كالعلقم: حاضر يا أمي.

وأما يونس فقد ظل جالسًا أمام هاتفه يتفقد الصور التي التقطها له مع الأعمى عندما كانا يتناولان الطعام، أو عندما كان يقص عليه إحدى قصصه الغريبة، ممنيًا نفسه أنه سيعود عما قريب.

كان الأمل عند يونس قويًّا، على عكس أمه التي انزوت في غرفتها نائمة أغلب الوقت، نوم الاكتئاب المعروف الذي جربناه جميعًا، نوم الهروب من الواقع.

"أيعقل أنني أحببته، أيعقل أنني عشقته، ما لي أبكيه كما بكيت خالدًا، ما لي أرثيه كما رثيت خالدًا، ما لي أراه بنومي يحتضني ويربت على كتفي، ما لي أفتقده، قلبي يؤلمني، عيني تحرقني، شوقي للاطمئنان عليه، فقط الاطمئنان، ليس لدي أيّة رغبة سوى أن أطمئن عليه، أهملت عملي، اعتزلت أصدقائي، انشغلت به حتى عن نفسي، عن ابني، عن أمي.. آه يا أمي على الرغم من قسوة ما قلتِ، فقد جعلتِني أفيق، أعدك أن أعود إلى رشدي، ولكن بعد أن أجده أو أعرف أين ذهب.."

أغلقت أمل دفترها، ثم اتصلت بغادة صديقتها الصحافية:

-آلو

-كيف حالك يا غادة؟

-الحمد لله بخير، طمأنيني عنك.

-بخير، أحتاجك في أمر مهم.

-تحت أمرك.

-سلمتِ، أريد أن أعرف أين أجد بعض المشردين لغرض بحثي مهم.

-غريب أمرك، أي دار رعاية للمشردين..

قاطعتها أمل:

لا لا، أقصد الذين يتبعون العصابات أو الشحاذين مرغمين لا المؤهلين.

-نعم، فهمت. عليكِ بمنطقة السيدة زينب والحسين ومساجد الأولياء، هناك يتجمعون، وهناك مقاهٍ يتجمعون عندها.

-السيدة زينب، تمام، أشكرك يا غادة.

وهمت لتغلق الخط فقاطعتها غادة:

-أمل، لا تذهبي بمفردك؛ تلك الأماكن خطرة.

-حاضر، لا تقلقي. جزاكِ الله خيرًا.

أغلقت أمل الخط، وقد أشرقت شمس الأمل وبدا شعاع نورها يضيء حياتها من جديد.

نادت على يونس: يونس!

جاء يونس مسرعًا: أخيرًا، طلبتِني يا أمي.

فابتسمت وربتت على رأسه، ثم نزلت بجسدها إلى مستوى طوله: ما رأيك في مغامرة صغيرة سرية؟

لمعت عينا الطفل مبتسمًا: موافق، إلى أين؟

قالت هامسة:

-سنذهب غدًا إلى مستشفى الحوض المرصود أطمئن على شعري، والباقي اتركه لي.

-اتفقنا.

-هيا اذهب وحضر ملابسك.

-حاضر، حالًا.

كانت حماسة يونس كفيلة برسم البسمة على وجه أمل الشاحب.

الفصل السادس

خرجت أمل باكرًا مع يونس بعد أن أخبرت أمها أنها ذاهبة لمستشفى الحوض المرصود لأن لديها مشكلة جلدية ما، فسمحت لها أمها.

استقلت أمل سيارة أجرة إلى مستشفى الحوض المرصود، وهناك دخلت المستشفى وقطعت تذكرة، وعندما رأت الصفّ وطوله، فزعت، فقامت بإعطاء التذكرة لإحدى المسنات وخرجت مع يونس فوجدت بالمقابل حديقة، جلسا أمامها قليلًا تناولا مشروبًا غازيًّا، ثم أخذته ومشيا باتجاه المسجد، وبطول الطريق تتلفت يمينًا ويسارًا علها تراه ولو صدفة.

-أين تلك المغامرة؟

-انتظر يا يونس، هل هناك مغامرات تتم في الثامنة صباحًا؟

-أنتِ من أخبرتيني يا أمي!

-اصبر يا ولد اقتربت..

وصلت إلى أمام المسجد، وجدت كثيرًا من المتسولين والشحاذين قد افترشوا رصيف المسجد، منهم من تبيع مسبحات من الخرز ترتدي عباءة رثة، وحجابًا متسخًا وكأنها لا ترتديه إلا وهي تفعل ذلك فقط! ومنهم من

يتعكزعلى عصا ويطلب بلسانه المساعدة، ومنهم من يأكل أرزًا ولحمًا قد فرّقه أحد الأثرياء عليهم.

راعها المشهد وأخذت تقبض على يد يونس، لا تعلم أتخشى عليه، أم تتقوى به.

فوجئت بسيدة تُلبس يونس مسبحة من الخشب وتقسم أنها من عند النبي ولا ينبغي أن تردها، ارتعبت أمل وبشكل لا إرادي نزعت المسبحة عن عنق الطفل، وقالت لها: شكرًا، عندنا كثيرٌ منها، أرجوكِ ابتعدي عن الولد.

وأخرجت من حقيبتها شيئًا من النقود، أخفته بيمينها عن شمالها، وأعطته للمرأة.

سألها يونس وقد ابتعدا عن السيدة:

لمَ نزعتِيها، كانت تعجبني، ألم تدفعي ثمنها؟

-تعجبك؟ هذه بدعة وكذب، ليس لها ضرٌّ ولا نفعٌ، انتظر سترى اليوم بدعًا ما أنزل الله بها من سلطان، ثم إنني لم أدفع ثمنها، هذه صدقة يا ذكي.

-من أخبركِ أنها بدعة وكذب يا أمي، وطالما بدعة فلم أعطيتِها صدقة؟

-تعلمت في أكاديمية زاد للعلوم الشرعية أنها بدعة، وأعطيتها الصدقة حتى لا تظن أنني رفضت شراء المسبحة كي لا أساعدها وتظن بي الكبر، أنا أرفض البدعة لا العبادة، فهمت؟

-لا، لم أفهم، أنا تعبت وأريد أن آكل وأجلس.

إرهاق يونس من المشي وطلبه الجلوس جعلها تبحث بعينها فوجدت على الضفة الأخرى من الطريق سيدة في عمر والدتها تجلس على إحدى المقاهي، فعبرت مع يونس نهر الطريق وسألت السيدة:

-السلام عليكم، هل متاح هنا الجلوس لأي أحد؟

فأومأت السيدة أن نعم.

فجلست أمل وأجلست يونس بجوارها، المقهى يقع على ناصيتين، متواضع كالمقاهي البلدية التي تقع في أي حي شعبي، ناصية أمام الشارع العمومي وناصية داخل شارع جانبي يقابلها مبنى لمدرسة ما، يبدو من سور المبنى أنه لمدرسة قديمة، على جانب رصيف ذلك السور يتراصّ بعض المشردين والشحاذين وذوي الإعاقات كمن يتأهبون لشيء ما..

-تحت أمرك يا أبلة.

صوت أجش، أفزع أمل من شرودها، فإذ به رجل ضخم الجثة وجهه مليء بالندب والخدوش يمتلك شاربًا كثًّا مبعثرًا مع ملامح غليظة، يرتدي

قبعة تشبه قبعة الفلاحين مع صديري يشبه القفطان وسروالًا واسعًا كالذي ارتداه الفلاحون في فيلم الأرض.

توجست أمل منه ثُم جاوبته: واحد قهوة مضبوط وعصير جوافة لو سمحت، مشيرة ليونس أن هو صاحب العصير.

-أوامرك يا أستاذة. انصرف الرجل لإحضار ما طلبته أمل.

وأخرجت من حقيبتها بعض المخبوزات وأعطتها ليونس ليأكلها بنهم.

ركزت أمل مع السيدة التي سألتها أولًا، فوجدتها توجه صبيًّا في عمر الرابعة عشر تقريبًا:

-هات لي لصقتين للعيون من د. أسامة وقل له ضعها على حساب أم مصطفى.

حدثت أمل نفسها:

_ربما لديها أحد مصاب في عينه.

أتى الرجل بالقهوة في كوب زجاجي، لم تعتد أمل تناول القهوة إلا في قدح، أما الكوب الزجاجي فتستخدمه فقط عندما تكون مخوّلة بغسل المواعين وتشطيب المطبخ، أما العصير فقد أتى به معلبًا من كشك مجاور للمقهى.

شكرت للرجل وسألته: ما اسم المقهى، حتى إن أتيت مجددًا أكون زبونة دائمة، فتهلل وجه الرجل من سؤال أمل، فأمل على الرغم من خمارها

واحتشامها فيبدو عليها الأناقة والرقي، قائلًا: مقهى عم حسين، اسألي وألفٌ يدلّونك.

لفت نظر أمل أن السيدة دخلت الشارع الجانبي وخرجت منه بلصقة طبية دائرية الشكل على إحدى عينيها، مع عصا تتكئ عليها لم تكن معها منذ قليل، يقودها الفتى إلى الجهة الأخرى باتجاه المسجد!

استبشرت أمل بذلك وأيقنت أنها تقترب من ضالتها، فاجأها صاحب المقهى بصوته الأجش للمرة الثانية طالبًا منها أن تقوم لبرهة حتى يتسنى له رش المكان لترطيبه، فشعرت أنه يطردها بالذوق، فقالت له:

-سأنتهي من القهوة وأرحل حالًا..

فقاطعها معتذرًا:

_ بل أنا أهيئ المكان من أجلك؛ ليليق بك يا أستاذة أنتِ وهذا الوسيم (مشيرًا إلى يونس).

فاطمأنت أمل إثر حديثه، وهمت لترتشف أول رشفة من كوب القهوة، فإذا بها ترى على حواف الكوب آثارًا متداخلة لشفاه عشرات من شربوا قبلها كشفها ضوء الشمس المنعكس في الكوب، وبعض علامات لقطرات الماء الجاف على الجهة الأخرى، فأدارت الكوب تجاه القطرات الجافة وأغمضت عينيها وشربت الكوب على رشفتين!

على الرغم مما كان بالكوب من إهمال، إلا أنها استحسنت القهوة، ولكن لم تطاوعها نفسها لتشرب الماء الملحق، فآثرت أن تشتري زجاجة مياه معدنية مغلقة لها وليونس.

"مكان خصب للتسول والشحاذة، يبدو أن غادة صديقتي وفتى دار الرعاية يعلمون كثيرًا، أو أنا التي تبدو ساذجة إلى حد ما".

حدثت أمل نفسها وكأن الأمر قد تشابه عليها على الرغم من وضوحه لجميع الناس.

بعد أن أنهت أمل قهوتها، فاجأت يونس وانحنت إليه تربط له رباط حذائه المفكوك، ثم وجّهت إليه الكلام دون النظر إلى عينيه موجهة أعينها إلى الأرض فهمست إليه قائلة:

_ اسمع يا بطلي، أريدك أن تقوم للعب وتحاول دخول الشارع قدر المستطاع، ولكن لا تلتفت إليّ كيلا تلفت نظر هؤلاء، وأنا سأتبعك وأدّعي أنني أبحث عنك، فهمت؟

تهلل وجهه وصفّق بكفيه بطريقة لا إرادية:

_ الآن بدأت المغامرة.. فقاطعته مهدئة: اهدأ يا ولدّ ألم أقل لا تلفت نظر أحد!

-نعم نعم، سأصمت. قالها واضعًا كفه على فمه كناية عن انصياعه لأوامرها واليد الأخرى يلفها حول خصره، موجها نظره إلى الشارع المنشود..

انتظر بضعة دقائق كما أمرته أمه وتمهل حتى أمسكت بهاتفها وانشغلت في مكالمة وهمية مع والدتها.

قال يونس محدثًا نفسه:

_تمثيل أمي يشبه ذلك التمثيل الذي أشاهده مع جدتي في المسلسلات الهندية!

قام يونس يقفز إلى الشارع في خفة وتسلل داخلًا إلى الشارع وسط المتسولين والشحاذين، لفت نظره أن أحدهم يعد عكازه الطبي ويقوم بلف قدمه بشاش طبي متسخ، وهذا آخر يقف على قدمه ويتأهب للجلوس على كرسي متحرك مخصص للمعاقين ومعه سيدة ثلاثينية تقوم بتعليق درنقة طبية على الكرسي، وتقوم بتغطية رأس ذلك الآخر بشال فلسطيني متّسخ، وتحمل في يديها كيسًا بلاستيكيًّا مليئًا بالأدوية، وملفًا مليئًا بالأوراق، وهذا ثالث يتأمل يونس ويراقبه كأن هذه هي وظيفته الأساسية، اقترب هذا الثالث وكان ضخم الجثة نظيف الهيئة عكس أقرانه في المكان، لم يلحظ يونس اقترابه وظل يقفز ويلهو وفجأة شعر بكف ثقيل تمسكه من ياقة قميصه وصوت عالٍ أسمع أغلب الجالسين:

_تتبع من يا ولد؟؟

فانتفض يونس مرتبكًا ونظر باتجاه جلوس أمه فلم يستطع رؤيتها، فتوتر قائلًا: أمم..أمي معي ككك كانت تتحدث في الهاتف فقمت لألعب قليلًا! وحاول تخليص نفسه من الرجل، ولكن الرجل كان يجره جرًّا إلى داخل الشارع الذي بدأ يزداد ضيقًا وظلامًا على الرغم من سطوع شمس التاسعة صباحًا!

أحست أمل أن دورها قد حان وهي تراقب من بعيد وقد انخلع قلبها على ولدها، ولكن ثقتها في ذكائه هدّأت من خوفها قليلًا، فقامت تحمل حقيبتها وتتجه داخل الشارع تخفي توترها ورعبها على يونس تبحث عنه بطريقة مصطنعة، وهي ترى الرجل يجره من بعيد فنادت بصوت عالٍ: يووونس ماذا تفعل عندك؟!

فنظر الرجل إليها من بعيد وشعر يونس أن قبضة الرجل أرخيت قليلًا فتملّص منه وجرى على أمه:

_ كنت ألعب يا أمي.

فتجمع بعض الرجال غريبي الهيئة حول أمل وابنها، محدثين بعض الجلبة، قال أحدهم:

_ من أنتِ وماذا تفعلين هنا؟؟

فردت بخوف بيّن من هول تجمعهم حولها:

_كنت أفطر أنا وابني وفجأة اختفى عن ناظري فقمت للبحث عنه. كانت تتفقد وتبحث بعينيها وسط الجالسين والقاعدين والواقفين علّها تراه وسطهم وينتهي هذا الكابوس، فقال لها أحدهم:

_ يبدو أنكِ صحافية وجئت لتصنعي نمرة علينا؟ أصحيح ذلك؟

أحست أمل أن أمرها قد كشف فبادرت بالنفي:

-لا والله، أنا لست صحافية، أنا كنت أكشف على ابني في الحوض المرصود وقد جئت إلى قهوة عم حسين لتناول القهوة والإفطار.

-اتركوها وشأنها، هذه السيدة تبعي.

التفتوا جميعًا إلى الصوت، فانفضّ الجميع في الحال تاركين أمل وابنها وسط اعتذارات وطلبات بالسماح والعفو من صاحب الصوت الأجش والشارب الكث!

التفت أمل إلى الرجل:

_عم حسين الحمد لله أنك جئت.

_تعالي ورائي أريدك في أمر مهم.

قالها بهدوء يشوبه الشك والريبة، أدخلها داخل المقهى مع يونس الذي كانت تقبض على كتفه كمن تخشى فقدانه حقًّا، وجلس أمامها متفحصًا:

_ شكلك لا يدل على أنك صحافية أو تستحقين البهدلة، بكل وضوح قولي لي ماذا تريدين؟

ارتبكت أمل وحاولت ابتلاع ريقها وأحست بألفة وراحة تجاه حسين.

-احكي واختصري، لو تركتك لهم لكانوا أكلوكِ، ابنتي مثلك وتشبهك، ولكنها عند ربها الآن، لولا أنك ذكرتِني بها ما ذهبت لأخلصك.

شعرت أمل بقلبها بنتفض داخلها، كيف لرجل يشبه رئيس العصابة أن يتحدث بهذه الإنسانية، كان جسدها كله يرتعد، تمنت لو تمكنت من سريرها الآن لتنام، ازداد الإحساس بالألفة والاطمئنان لـ"حسين" فأردفت:

-أنا أبحث عن كفيف مشرد كنت أعتني به، وولدي متعلق به ويحبه، فجأة اختفى من أمام منزلي، وقد بحثت عنه كثيرًا فلم أجده، فلما حضرت قدرًا إلى هنا قلت لربما أجده وسط هؤلاء. هذه القصة باختصار.

-ما اسمه؟

-لا نعرف. قالها يونس ببراءة الأطفال وهو يعبث ببعض أحجار النرد الموضوعة أمامه على منضدة متوسطة وسط لعبة (الطاولة) الشعبية.

فقاطعته أمل:

-حقيقة لا نعلم له اسمًا، ولكننا نحفظ شكله وهيأته جيدًا هذه صورته.

فتحت هاتفها وأعطته لحسين فوجد صورة لرجل مشرد مع يونس، ويونس يطعمه في فمه.

فقال متعجبًا: شكله ليس واضحًا، ولكن أخبريني مكان اختفائه وأنا بعد يومين سأخبرك ماذا حدث له.

تهلل وجه أمل وقالت بسعادة: حقًّا؟ حقًّا تستطيع؟

فقاطعها حسين: قدمي المشيئة يا أم يونس، ولكن شرطي ألا تخبري أحدًا، إن عرف أحد بالأمر فقولي على نفسك يا رحمن يا رحيم!

انقلبت سعادتها إلى خوف وقلق ثم قالت:

_ حاضر حاضر، لن أخبر أحدًا، لقد اختفى منذ ثلاثة أيام من منطقة منيل الروضة.

-هاتي رقم هاتفك ودعي الأمر لي.

قالها بلهجة مطمئنة، ولكن أمل توجست منه فقالت:

-لا أحفظه، هَاتْ رقم هاتفك وأنا سأتصل بك غدًا.

فنزع منها هاتفها فجأة بخفة وقام بالاتصال برقم ما ثم مسحه فورًا، وألقى الهاتف على المنضدة عائدًا بظهره إلى الخلف قائلًا: حللت لك المشكلة، سأهاتفك أنا وقت ما أشاء وكيف ما أشاء، ولا داعي لمثل هذه الحركات، تستطيعين المغادرة الآن.

أحست أمل بأحاسيس متداخلة، خوف وقلق وتوتر رغبة شديدة في التقيؤ، حدثت نفسها:

رجل يبدو عليه الخطورة والإجرام وفي الوقت نفسه يقول لي قدمي المشيئة ويساعدني في مطلبي!

قامت مسرعة هي ويونس مستقلين سيارة أجرة بيضاء (تاكسي) وكأنها خرجت لتوها من بئر عميقة.

"يا ويلتي، ما لهذا اليوم لا يريد أن يمر، ما لي وضعت نفسي في مشكلات لا أستطيع مجابهتها وحدي، أيعقل أنني جننت للحد الذي يجعلني أخاطر بولدي وحياتي، لو علمت أمي فإنها قاتلتي، ماذا لو كبر يونس وتذكر تلك الأحداث ماذا سيقول؟ سيقول جنت أمي برجل أعمى لا يكاد يفقه قولًا! عشقت أمي مجذوبًا لا تعرف اسمه، سيقول أدخلتني أمي وكر المتسولين والشحاذين بنفسها. لطالما قرأت في كتب التربية الإيجابية -سامح الله من كتبها- أنك تصنع ذكريات ولدك، فأحسن لذكرياته، ما هذه الذكريات الغريبة التي أصنعها لولدي! كيف لطفل مثل يونس اقترب من العاشرة، حياته هادئة مسالمة أن ينسى مثل هذا! لله درك يا يونس، يبدو أنك ستتعب مع أمك العاقّة "أمل أيوب عبد الرحيم").

أغلقت أمل كتيبها على إثر صوت السائق: وصلنا يا مدام.

-كم الأجرة؟

-أيقظي الولد أولًا وانزلي ثم حاسبيني.

تنبهت أمل ليونس الذي أرخى رأسه الصغير على شرفة السيارة وقد غلبه النعاس بسبب الاستيقاظ مبكرًا، فقامت بإيقاظه ونزلا، ثم حاسبت السائق ودخلت إلى البناية صاعدة الأربع درجات الرخاميات بوهن شديد، بينما الظهر قد اقترب من الأذان.

وصلت إلى الشقة محركة المفتاح في الباب ودفعته بتثاقل كمن تحرك جبلًا، ألقت بكمامتها في أقرب صندوق قمامة وألقت جسدها على أقرب كرسي:

-السلام عليكم، كيف حالك يا أمي؟

-وعليكم السلام، الحمد لله بخير، لم تأخرتم هكذا؟

نظر يونس بعينين ناعستين إلى أمه ثم أتبع النظر إلى جدته في صمت.

فقطعت أمل الصمت:

-المستشفى كان مزدحمًا، وتمشيت مع يونس عند مسجد السيدة زينب..

-وصليتم في المسجد؟ ألم تقولي إنه بدعة لأنه مسجد به مقام؟

فابتسمت أمل وهي تعلم أن أمها تسخر منها:

-لم نصلِّ يا أمي؛ فلم يؤذن علينا أي أذان، بل مشينا أمامه وجلسنا نتناول الأفطار بمقابله.

-إمم.. نعم نعم، ظننتك ممن يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم!

-حاشا لله يا أمي، لو بيدي ولي قدر ومكانة بين الناس لفعلت، ولكن أسأل الله ألا أنسى نفسي وذريتي من دعوتي قبل أن أدعو الناس للبر والتقوى.

- يووه.. مِدفع وانطلق، وكأنك تنتظرين، لقد انتهينا يا ست الشيخة أمل.

قالتها بملل وضجر وكأنها تستنكر على ابنتها أن تكون في مقام الداعية، ثم أردفت:

-عندك على الرخامة الإفطار كما هو إن أردتِ فكلي أولًا فأنا خارجة لأشتري بعض الحاجات وسأمرّ بالمقرأة، وبعد أن تستريحي وتنتهي من إفطارك رتبي أغراض الشقة، لأن أهل خالد رحمه الله آتون اليوم لزيارة يونس، اتصل والده بي وأخبرني بذلك..

قاطعتها أمل متعجبة:

_ أهل خالد؟ وما الذي ذكرهم بنا؟

_ لا أدري، اسأليهم عندما يحضرون.

كان يونس قد دلف إلى حجرته قبلها وارتمى على سريره بملابسه، وعندما تبعته أمل كانت تبدو شاردة وكأن شيئًا ما ذهب بعقلها وتركيزها.

-ماذا تفعلين يا أمي، ترتدين البيجامة على الخمار؟

تنبهت أمل لما تفعل وعلى أصوات إذاعة القرآن الكريم وترتيل الشيخ الحصري كانت تردد وراءه الآيات، ولم ترد على يونس، وتوارت عنه لتبدل

ملابسها، بينما عقلها يفكر كيف تمهد ليونس خبر زيارة أقاربه، ماذا لو أتوا للمطالبة بأخذه؟ ما للمصائب لا تأتي متفردة؟!

نظرت لوجهها في المرآة، بدأت تتلمس حواف وجهها ووجنتيها، تتأمله كأنها تراه لأول مرة، تمرر أصابها بين خصلات شعرها الفاحم ذي الملمس الناعم، تنصت لدقات قلبها، دقة تخبرها بخوفها مما وصل له موضوع ذلك الأعمى، والأخرى تخبرها بقلقها من زيارة أهل خالد، تتمنى لو أنها لم تساعد ذلك الأعمى ولم تتعرف إليه وتقترب منه كل هذا الحد، ماذا لو جدد جد يونس طلبه لها بزواجها بشقيق خالد المقيم بالخارج (عمر)، وبالمقابل سيوفر لها شقة ودخلًا ثابتًا لتربية يونس ولن تضطر إلى العمل المرهق على الحاسوب والعيش مع والدتها؟

كان عقلها يؤيد الفكرة على الرغم من علمها بأنه متزوج قبل ظهور ذلك الأعمى، ولكن قلبها كان يرفضها لإحساسها بأن خالدًا مازال حيًّا، أما الآن، فترفضها رفضًا قاطعًا لشيء في نفسها، هي تؤمن بأن أيّة امرأة تطمح لشيء آخر دون أن تتستر وتصبح ملكة في بيتها غير عابئة بعمل أو دخل فمشكوك في فطرتها، فطرة المرأة السوية تجعلها كائنًا يحب أن يعيش ضعيفا مع مصدر للقوة تستمد منه قوة تعينها على الحياة، أما أولئك اللائي يضطررن للعمل والكفاح لغياب ذلك المصدر لأي ظرف ما أو ابتلاء بالفقد فهم مستثنون ونرفع لهن القبعة افتخارًا وإجلالًا.

في ظل انتشار الفكر النسوي الذي أغرق وسائل التواصل الاجتماعي وخرب بيوت كثيرات وكثيرين، كانت أمل متابعة جيدة، ولكنها صامتة لا تعبر ولا تكتب، فقط تطّلع وتقرأ وتقارن وتحتفظ بآرائها لنفسها، مؤمنة هي بأن العدل بين الرجل والمرأة قائم وليس المساواة، تذكرت المرة الوحيدة التي كتبت فيها منشورًا ووجدت كل زميلاتها في العمل وصديقاتها أخطأن فهم المنشور مما جعلها تحذفه تجنبًا للنقاش ووجع القلب!

"من العدل بين المرأة والرجل أنه عندما يذهب الرجل للعمل وكسب الرزق يعود ليجد لقمة هنيئة، وبيتًا ممهدًا للراحة وأطفالًا نظيفين على الأقل، إن لم يجد قبل ذلك بالطبع امرأةً نظيفة وبشوشة، فمن الظلم أن تطلب منه زوجته أموالًا واهتمامًا، أو كعادة النساء في بلادي تتجنبه وتنكد عليه قائلة: "الاهتمام مابيطلبش".

كان منشورًا عاقلًا رصينًا من وجهة نظرها ونظر بعض الرجال، أما أغلبية النسوة فاتهمها بعضهن بالبحث عن زوج، وبعض آخر قال إنها ذكورية تدعو لعودة الرق للمرأة، وأكثرهن صدمة صديقتها غادة الصحافية التي اتهمتها أنها تتبع فكرًا متطرفًا يدعو النساء للجهل والعبودية من أجل شهواتهن!

وقتها حذفت أمل المنشور وقررت ألا تخوض في تلك الأمور أبدًا على الفيسبوك؛ لأنه عالم مليء بالغموض والخداع.

على الرغم مما كانت تظنه أمل في الفيسبوك وفي غيره من وسائل التواصل الاجتماعي، إلا أن لوسائل التواصل ما لها وعليها ما عليها، والذكي من يستطيع أن يدير الدفة دون الغرق، أمل كسيدة اكتسبت السلبية مما تراه، بدأت تتغير وتتحول، فسلبيتها تلك ألقتها جانبًا وتحولت من أمل التي تخشى أي جدال أو نقاش بريء إلى أمل المغامرة التي تتواصل مع عصابات وتذهب للأماكن المشبوهة للبحث عن فقيدها، من امرأة لم تنظر في مرآتها إلا للضرورة إلى امرأة تتطلع كل يوم إلى نفسها وملامحها، كمن تتفقد شبابًا ونضارة كادا أن يختفيا وسط لهو العمل والحياة الرتيبة، تغيّرت وكيف لمثلها لا تتغير، إن المشاعر واعتلال القلب هما من يغيران المرء ويحولان دفته مهما كان صارمًا وجادًّا، ليس للمشاعر كبير سوى الله، إذا أدرك المرء تفلّت مشاعره وجموح رغباته منه، فلن يكبح ذلك إلا بالاقتراب من الله والانشغال بعبادته وطاعته عن تلك المشاعر والأحاسيس، لا قلب ولا عقل، فقط الله الذي يقدر على رده إلى بر الأمان بشكل إعجازي بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

أي فقيد ذلك الذي يبدل المرأة ويجعلها تفعل ما لا تتوقع أن تفعله يوما ما، رغبة إيجاده والاطمئنان عليه، ما هذا الحب؟ وما مدى صدقه؟ من الذي يستحق منا كل هذا العناء، من ذا الذي من أجله تتغير وتُغير، تكذب وتتجمّل، تذنب وتتوب، تستغني عن الطعام وتكتفي بلقيمات يقمن صلبك في حالة من الشبع الغريبة، تزهد كل شيء إلا ذاك الحب والمحافظة عليه، أن تلمع عيناك ويشرق وجهك الكئيب، أن تبتسم حين تتذكره، وفي وسط ابتسامك يقطر الدمع بلا أدنى إرادة منك لتذكرك أنه لم يعد موجودًا أصلًا؟ ما هذا...؟

الفصل السابع

كادت أمل أن تنام بجوار يونس، ولكن رنين جوالها أوقظها، كانت أمها تؤكد عليها خبر إتيان الضيوف في الهاتف وتتعجل منها إنهاء ترتيب المنزل، قامت والصداع يأكل رأسها تسرع في الترتيب وبعد قليل حضرت والدتها محملة بالبقالة ولوازم البيت، حملت عنها الطلبات ذاهبة إلى المطبخ وقامت بتحضير الطعام بمساعدة والدتها، سألتها والدتها وهما بالمطبخ:

-هل تظنين أنهم آتون لرؤية يونس فقط؟

رمقت أمل أمها ثم نظرت إلى يونس الجالس بالخارج يشاهد أفلام الرسوم المتحركة بكل تركيز، ثم تنهدت قائلة:

-لا أدري يا أمي، ذلك الولد عانى كثيرًا ومن حقه أن يجد أبًا في حياته، على الأقل يحدث له ما حدث لي، عند وفاة أبي دبّر لي الله أبي طاهر مكانه، أما أن يكون هكذا، فوالله إني لأشفقن عليه، على الرغم من أنه لا يبالي الآن، إلا أنه بعد بضع سنين سيعاني.

نظرت سمية إليها كمن ذكرتها بما يكدر صفوها ويربكها، فقالت بتوتر وقد همّت بالقيام إلى خارج المطبخ:

-ما كل هذا؟ أنتِ تختلفين عنه، ظروفك غير ظروفه، حياتك غير حياته، حتى أمك غير أمه.. الناس اقتربوا من المجيء سأقوم لأغيّر ملابسي، وأنتِ أنهي تحضير الطعام، سيأتي الناس من سفر ولابد من إكرامهم، إنهم من الشرقية.

آثرت أمل الصمت، لأنها تعلم أن أمها تتهرب منها "حتى أمك غير أمه"، هي تعلم أن تلك الكلمة تقصد بها كثيرًا من المعاني، تقصد المقارنة بينهما كأمهات، للحظة أحست أمل أن سمية تشير إلى قسوتها ومعاملتها الجافة معها منذ الصغر وتقارن بينها وبين علاقة أمل بيونس التي تشبه علاقة الأصدقاء، لا علاقة أم بولدها، ولكن كعادتها كتمت ما تشعر وآثرت البوح به لدفترها ومذكراتها...

لم يكن يدري ما يحدث له ألم شديد بجانبه الأيسر وظهره، تحسس جسده الهزيل فشعر بلاصقة طبية كبيرة تحيط جانبه وظهره، لم يعتد الحديث والسؤال عما يحدث له وعن مكانه، يسلم نفسه للظروف كيفما كانت وأينما كانت، سمع حديثا مختلطًا بين أصوات عدة ميز منها صوت أحدهم يقول:

-المعلم حسين يقول أعيدوه من حيث أتيتم به حالًا.

تهلل وجهه وتمنى العودة حقًا، لقد اشتاق لأمل ويونس وطعامها الشهي وحديثهما الممتع وعنايتهما به.

-لمَ؟ الرجل ضعيف ومن الممكن أن يموت، ومازال جرحه جديدًا، إن أعدناه سيموت والشرطة لن تفوت الموضوع وسندخل في سين وجيم.

-المعلم يقول أعيدوه ويتعهد لكم بالأمان، وأنت تعلم يا دكتور المعلم حسين كلمته سيف.

-داهية تأخذك أنت ومعلمك ألا يكفي ما فعلتموه بالرجل؟

قاطعه المتحدث:

-من يسمعك يظن أنك لن ينوبك من الحب جانب، ما كان يدرينا أن الرجل لا يصلح وأن كليته مريضة وليست لها قيمة، لم تخسر شيئًا، وحقك وعرقك محفوظ، نحن من خسرنا وفقدنا ثلاثة أيام بلا جديد، وما لك تهتم بالرجل أنت وعم حسين، تشعرونني أنه يستحق، إنه مجذوب لا يدري ولا يكاد يفقه قولًا.

رد الطبيب بعصبية:

_ اصمت يا غبي، الرجل طاعن بالسن وصحته لا تسمح بأن نخرجه، إن أردت فاتركه يموت هنا وتعامل مع جثته كما تتعامل مع غيرها، لكن قصة عودته تلك لا تروقني، وأشعر أنها لن تمر بسلام.

-اسمع يا دكتور، أنت هنا تفعل ما تؤمر به، وقلت لك إن المعلم تعهد بالأمان، فلا داعي لما تقول، وأرجوك اصمد قليلًا وجمد قلبك، الوضع لا يتحمل.

ذهب الطبيب إلى مريضه فوجده يتنفس وحالته مستقرة، فقام بمساعدة الرجل الآخر وحملاه إلى الخارج في إحدى السيارات، سيارة بدون أرقام ولا هوية ألقته أمام منزل أمل وعادت مسرعة، لم يلحظها أحد بسبب هدوء الليل والمنطقة.

بينما كانت سمية ومعها يونس توصل الضيوف إلى الخارج بعدما أوقفت لهم سيارة أجرة توصلهم لمحطة القطار..

لاحظ يونس رجلًا ملقى بمقابلة بيتهم، فأسرع إليه يتفقده فوجده ذلك الأعمى صاحبه، ولكن يبدو عليه الإعياء الشديد، فأسرع إلى الداخل ليخبر والدته.

بينما كانت أمل ترد على هاتفها تحدث أحدًا ما:

-ألو من معي على الخط؟

-انظري من شرفتك وستعرفين، ولكن لا أريد منك أيّة شوشرة أو أن تبلغي الشرطة أو تذهبي به إلى مستشفى ما، لقد وفيت بوعدي أوفِي بوعدِكِ أنتِ الأخرى.

أسرعت للشرفة فوجدته ووجدت يونس يتفقده ويسرع ناحية البيت.

-ها ماذا قلتِ، اتفقنا؟

-نعم، نعم، اتفقنا، لا تقلق.

-تمام يا أستاذة، وأنا أثق بك، ولكن اعلمي أن عنوانك وهاتفك وكل تفاصيل حياتك عندي، إن فكرتِ مجرد التفكير في إبلاغ الشرطة..

قاطعته أمل برهبة:

_ لا، لا، والله لن أبلغ أحدًا، أنا عند وعدي، شكرًا لك يا عم حسين، هل لي أن أعرف كيف عرفت مكانه وأتيت به بهذه السرعة؟

-ليس شأنك ولا تسألي، سلام.

أغلق الخط فأسرعت ليونس مشيرة له بأنها قادمة وألقت الهاتف بلا اهتمام وهرولت إلى خارج المنزل، اضطرابها ولهفتها عليه ألجم لسان والدتها التي تتابع المشهد كاملًا، ويبدو أنها أرادت أن تكمله للنهاية.

كانت حالة الرجل يرثى لها؛ هزيل وضعيف أشبه بجثة ميت، ولكنه يتنفس ويئن، تفقدته أمل، وجدته يرتدي جلبابًا أبيض ملوثًا ببعض الدماء، ملقى على جانبه الأيمن، ممسكا بجانبه الأيسر وظهره بيده اليسرى، أدركت من حديث حسين وأنين الرجل أن به أمرًا مرضيًّا خطِرًا، لا تدري ماذا تفعل، فوجدت أمها بالخلف تقول:

-ألم نسترح من هذا العبيط؟

التفتت أمل إليها وبرجاء يشوبه الذل: أرجوكِ يا أمي ليس وقته تمامًا، ساعديني في إدخاله إلى المنزل.

-نعم، هل جننتِ؟ منزل من؟ أقسم بالله إن فكرتِ في ذلك لأكونن..

قاطعتها أمل:

_ساعديني وسأنفذ ما ترغبين وأتزوج شقيق خالد، أرجوكِ ساعديني، الرجل يموت.

صمتت سمية لبرهة من الوقت ثم رضخت لما طلبت أمل، شعرت سمية أن أمل في أضعف حالاتها، وموافقتها على الزواج نفت تمامًا ما تظنه سمية من عشق أمل لذلك الكفيف غريب الأطوار، أوقفوه على قدميه وأسندوه ثم قاموا بإدخاله، وأرقدوه على أريكة في جانب الردهة بجوار شرفة ما وبمقابلة باب المطبخ، على الرغم مما يخيم على المكان من حزن لحال الرجل، إلا أن أمل ويونس سعادتهما كادت أن تُخرِج قلبيهما من داخلهما ليرقصا سويًّا، تفاجأت أمل بوالدتها تحمل بعض الغيارات وتعطيها لها وليونس وتقول:

-تصرفوا وغيروا له هذا الجلباب، لا أطيق رائحته ولا شكله.

تحرجت أمل وشعرت بخجل ونظرت ليونس وأمها في حرج:

-كيف يا أمي لا أستطيع، دعيني أعد له لقمة يأكلها، والصباح رباح، سأحدث فتى دار الرعاية وهو سيتصرف.

ذهبت أمل إلى المطبخ تعد له الطعام، بينما والدتها جلست قبالة الرجل تتأمله، راعها ضعفه وهوان منظره، رقت له ولحاله، أحست بشيء داخلها يقودها لتتفحصه، أشفقت عليه وأحست بشيء ما يقودها لتلمس وجهه،

اقتربت منه وخفق قلبها شعرت أنها رأته من قبل وقبل أن تتلمس وجهه سحبت يدها فزعة عندما نفرتها رائحته، أشفقت على ابنتها وحفيدها اللذين أشرق وجهيهما بمجرد رؤية الرجل على الرغم مما به من إعياء وهزال، ما الذي يجعل امراة عاقلة كأمل وطفل ذكي كيونس يهتمان لمثل هذا الرجل؟ ماذا يملك وماذا يصنع لهما وهو لا حول له ولا قوة؟

حاول الرجل أن ينقلب على ظهره، ولكن توازنه اختل، وكاد أن يسقط من أعلى الأريكة، لولا أن سمية قامت مسرعة وأسندته بشكل لا إرادي، بينما أمل ترتب الطعام وتضعه على المنضدة، ذهول عم المكان جعل الطفل يونس يشد أمه من جلبابها قائلًا:

-ماذا حدث لجدتي إنها تساعد عمو..؟

انتبهت سمية لكلمة يونس فتوترت قائلة:

-ككك.. كاد أن يسقط فعاونته..

تأملت أمل الموقف وأحست للحظة أنها رأت في أمها ما لم تره من قبل، وأحست أنها امرأة كباقي النساء تضعف وتحن وتتلهف وتئن، وكأن ذلك الأعمى ما جاءها إلا ليغير بهم ما لم يستطيعوا أن يغيروه بأنفسهم!

-لا عليكِ يا أمي، ادخلي نامي أنتِ، وسأسهر بجواره أنا ويونس وأعدك في الصباح أنك لن تجديه.

رق حال سمية أن تظن ابنتها بها كل تلك القسوة وجفاء المشاعر فقالت بحنان:

لم أطلب رحيله، فقط أنا أخشى عليكم...وعليه، تصبحون على خير.

قالتها ودخلت حجرتها تاركة ثلاثتهم خلفها في بهو الشقة.

"أحقًا أمي هكذا، ما عهدتها إلا جافة المشاعر قاسية تسفّه من كل ما هو إنساني، باعتبار ذلك سذاجة وفراغًا، للحق تبدلت نظرتي لأمي هذا اليوم، من يراها وهي ترحب بأهل خالد ويرى رغبتها في الخلاص مني بترحيبها بعقد القران بيني وبين عمر عم يونس، يبصم بالعشرة أنها تكرهني لا محالة، تريد الخلاص مني ومن يونس على الرغم من أنني لا أكلفها شيئًا، أحاول جاهدة ألا أشعرها بوجودنا، ولكنها بإصرارها اليوم على رد الزيارة والسفر لمحافظة الشرقية بيونس وتركه يبيت بضعة أيام مع جده وجدته لأبيه جعلني أوقن أنها قد سئمتنا وسئمت تواجدنا معها، ولكن ما رأيته من مساعدتها للرجل جعلني أشعر أنها امرأة أخرى غير التي أعرفها، ترى هل تغيّر رأيها تجاه أهل خالد وتجاه زواجي من عمر، تُرى أما رأيته وأحسسته تغيّر جذري أم فقط تغيّر وقتي ولن يعود؟؟"

أغلفت أمل دفترها بعد أن سمعت الرجل يتحدث بوهن:

-ماء، أريد بعض الماء.

فأسرعت إليه وأيقظت يونس بعد أن غفا قليلًا:

-قم يا يونس لنسقي عمك.

فقام يونس يتثاءب ويفرك عينيه كي يساعد أمه في سقيا الرجل. ثم تجهّزا لصلاة الفجر وتلاوة أذكار الصباح.

، وبعد أن انتهيا طلب الرجل من يونس أن يذهب للخلاء، فساعده يونس وسارت أمل وراءه واضطرت لأن تدخل معه وتساعده على الجلوس على المرحاض، وأعطت ظهرها وعلمت يونس كيف يساعده. وبعد أن انتهى ساعده يونس وأمل للخروج..

-أريد أن أخرج وأجلس في مكاني، أسمع تغريد الكيور مما يعني أننا أصبحنا..

-كيف ذلك؟ أنت مريض.

-تحسنت الحمد لله، أرجوكِ كفاكِ تعبًا، لم تنامي بالأمس، شعرت بكِ، لا أريد أن أسبب لكِ المتاعب.

-لا توجد متاعب ولا غيرها، فقط انتظر قليلًا، سيأتي من يهتم بك، أعلم أنك تريد الخروج، ولكنه ليس أمانًا عليك.

-أغراضي وملابسي وأشيائي، أين أجدهم؟

-لا تقلق، أنا محتفظة بهم في صندوق كرتوني هنا.

-من سيهتم بي؟ ماذا تقصدين؟ ستبلغي الشرطة؟

-لا لا، إنها دار رعاية مخصصة لمن في مثل حالتك، كي لا تتعرضوا للأذى.

صمت الرجل وخيّم الحزن عليه وأردف قائلًا:

_ ولكني لم أطلب ذلك.

_أعلم، ولكن لن تندم صدقني.

تركته أمل مع يونس الذي كان يشاهد أحد أفلام الكرتون.

اتصلت أمل بفتى دار الرعاية، وأخبرته بما حدث، وطلبت منه طبيبًا متطوعًا يفحصه دون اللجوء للشرطة أو أحد المشافي.

تفهم الشاب ووعدها بالحضور فورًا.

عندما حضر الشاب ومعه الطبيب وأحد المساعدين طلبوا نقله للدار فورًا ليهيئوا له جوًّا نظيفا وملابس مناسبة..

فقاطعته سمية وقالت خذ يا بني هذه حقيبة بها ملابس مناسبة له، أرجوك لا تردني إنها بحالة جيدة ومغسولة ومكوية..

تعجبت أمل من حال أمها وارتسمت ابتسامة على وجهها تجاه والدتها ويونس بدوره أعلن ذلك قائلًا بتلقائية:

_ هل أنتِ جادة يا جدتي؟

فردت أمل تزجره:

-ولد اصمت، جدتك طوال عمرها حنونة وخيرة.

نُقل الرجل للسيارة الخاصة بالدار، واستأذنت أمل أمها أن تذهب معه هي ويونس، فأذنت لهما.

قال يونس ببهجة:

_ أنتِ أحلى جدة في الدنيا. فاتبسمت له جدته قائلة مداعبة إياه:

-أنت نصّاب، اذهب وبدّل ملابسك بسرعة.

بينما كانت تتجهز أمل ويونس في عجالة للحاق بركب الدار، لاحظت الحقيبة التي أعدتها أمها للرجل قد نُسيت، فاصطحبتها معها داخل سيارة أجرة، وأكلها فضولها لترى ما بها وماذا جهّزت له، في الطريق فتحتها فوجدت في مقدمتها ظرف مغلق، ووجدت مكتوب عليه "خاصٌّ بالكفيف ومصروفاته".

فطنت لكونه ظرفًا يحوي مبلغًا من المال فابتسمت وقالت في قرارة نفسها، يبدو أنني لا أعرفك حق المعرفة يا أمي، إننا مهما بلغت بنا القسوة والشدة يظل بداخلنا جزء فطري مفعم بالإنسانية لا يظهر إلا في أحلك الظروف وأصعبها، أنّى لنا أن نعيش قساة متحجري القلوب، وقد خلقنا الله على فطرة الإسلام؟

منّا من يصون فطرته ويغلب خيره شره، ومنا من يلوثها فيتحول إلى إنسان فطرته أصابها التّيه، فتجده كالحجر أو أشد قسوة...

لما انفض البيت، وجلست سمية بمفردها، راعها أن تظن ابنتها بها السوء، هي لا تريد سوى أن تطمئن عليها، فالعمر لم يعد مضمونًا، ويونس مازال صغيرًا، وهي تعلم أن المرأة الأرملة أو المطلقة لابد لها من الزواج كي تعفّ نفسها وتلبي احتياجاتها الطبيعية والفطرية، فليست الثّيّب كالبِكر، وليس من ألف طعم العسل كمن لم يذقه.

تظنها أنها تود الخلاص منها، وفي الحقيقة هي تود صونها ومساعدتها على مجابهة حياة لا تستطيع مجابهتها بمفردها.

يظن الأبناء بآبائهم وأمهاتهم السوء عندما يصرون على قرارات بعينها على عكس رغباتهم، على الرغم من أنهم فقط من يتمنونهم أفضل منهم لأنهم يعلمون عن الدنيا ما لا يعلمه الأبناء.

لا أحد يتمناك أفضل منه إلا أبواك، وما دون ذلك زائل ومعرض للفتور.

الفصل الثامن

عندما دخلت أمل دار الرعاية وجدتها بناية عادية مكونة من عدة شقق في ثلاثة طوابق، بدت الشقق متواضعة، الطابق الأول مخوّل للإدارة، والذي كانت تجلس فيه هي ويونس، الطابق الثاني مخول للرجال، والثالث للنساء.

وجدت شبابًا مختصين بالعناية بالرجال المشردين، وهناك فريق من الفتيات مختصات بالعناية بالنساء، تعجبت من وجود نساء مشردات، بل رقّ حالها لهن أكثر، وشردت كثيرًا وتساءلت، ما الظروف التي تجعل المرأة مشردة وبلا مأوى؟

كان اسم الدار (مأوى)، حقيقة كان اسمًا على مسمى، انتظرت قليلًا حتى حضر أحد الشباب مستفهمًا عن سبب جلوسها، فأخبرته أنها جاءت للحالة التي دخلت لتوها، وأن الأستاذ عبد الرحمن يعرفها ويعرف سبب جلوسها، استنكر الشاب ذلك وأخبرها أنه ممنوع الجلوس هنا إلا لأهالي الحالات التي تم التعرف إليها، فشعرت بالضيق وتذكرت الحقيبة التي أرسلتها أمها، فأسرعت قائلة:

_معي تبرعات للحالة، وأود أن أتأكد أنها وصلت لها بنفسي.

فرد الشاب متهكمًا:

-اتركيها وسأكتب لكِ وصلًا بها، ولا داعي لها إن أصررتِ على إيصالها بنفسك.

أحست بنبرة إهانة في صوته وطريقة حديثه، فآثرت الصمت وأخرجت هاتفها تتصل بعبد الرحمن، فأجابها معتذرًا أنه مشغول مع الطبيب والحالة وأنه سيرسل لها فتاة تجلس معها لحين الانتهاء من تجهيز الحالة، ومن ثم يجعلها تراه وتطمئن عليه، استراحت لما قال ولم تعِر الشاب الآخر اهتمامًا، ووجدت فتاة محجبة ترتدي بنطالًا فضفاضًا وقميصًا عليه شعار دار (مأوى) ترحب بها وتطلب منها الصعود إلى الطابق الثالث.

-حضرتك أستاذة أمل أيوب؟ أنا ندى سأظل معكِ.

-نعم، أنا أمل، سعدت برؤيتك يا آنسة ندى.

-سلمتِ، تفضلي معي إلى الطابق الثالث.

اصطحبت أمل يونس وصعدت مع الفتاة تاركة الطابق الأول والحقيبة.

تساءل الشاب إن كانت آتية للتبرعات فلمَ تركتها ولم تكترث بها؟

دخلت أمل بهو الشقة، كان به كراسٍ جلدية مريحة ومكتب عليه حاسوب وبعض الأوراق، والجهة المقابلة تلفاز متوسط يعرض مسرحية ما، تجلس امرأتان، يبدو من ملبسهما أنهما مشردتان، وقد مرتا بمرحلة

تأهيل، فترتديان جلبابات مزرقشة نظيفة ورائحة المكان منعشة ونظيفة، واحدة تبتسم وتشغل مفرشًا من الكروشيه، والأخرى تساعدها في مسك بكرة الخيط لها، على الرغم من تباين أعمارهما، إلا إنه بدا عليهما الانسجام والتناغم، واحدة شعرها قصير كشعر الرجال، والأخرى تملك ضفيرتين قصيرتين.

أجلستها ندى على كرسي وثير بالقرب منهما، ظلت أمل تتأملهما بصمت ويونس ذهب إليهما محاولة مداعبتهما، فحذرته أمل زاجرة:

-ولد، تعالَ إلى هنا وتأدب واجلس بجواري.

قالت إحداهما:

-اتركيه.

فردت ندى باتسامة رقيقة: دعيه يلعب معهما، لن يوذياه.

-لم أقصد، أنا فقط أخشى أن يضايقهما.

-لا، إطلاقًا، نحن نتمنى أن يزورنا أي أحد ليستأنسوا به إلى أن يتعرف أهلهم إليهم.

فاستراحت أمل لما قالت فأسرعت تسألها:

-هل هناك من يتعرف أهله إليه؟ وكيف ذلك؟ وهل لي أن أعمل هنا معكم متطوعة؟

ابتسمت ندى: ما كل هذه الأسئلة؟! واحدة واحدة وسأجيبك!

أتت فتاة أخرى ترتدي مثل ندى، وجلست بدلًا منها على المكتب، فاستأذنتها ندى أن تأخذ أمل في جولة تعرفها على نظام الدار، فهي تريد التطوع للعمل معهن.

استأذنت أمل أن تصطحب يونس معها، فسمحت لها.

"هذه التي تحيك المفرش، وجدناها تحت أحد الكباري تفترش الأرض، مريضة فاقدة النطق، ليس لديها طعام أو شراب، وجدناها صدفة فأطلقنا عليها اسم (صدفة)، أخذناها واهتممنا بها وأحضرنا إليها ملابسًا جديدة، وعرضناها على طبيب متطوع فكتب لها على قائمة أدوية ونظام تغذية، وتبدّل حالها تمامًا، بدأت تتكلم وتتعلم الكروشيه وصارت متمكنة منه وتُعلّم زميلاتها. ولكن إلى الآن لم يتعرف إليها أحد."

سألتها أمل بتعجب:

وما السبيل إلى أن يتعرف إليها أحد؟

-عن طريق الفيسبوك.

فتحت أمل عينها وفمها مستنكرة: ماذا؟ الفيسبوك؟

-نعم، لنا صفحة كبيرة ننشر عليها صور من نعثر عليهم قبل التجهيز وبعد التجهيز، وكثير منهم يتم التعرف إليهم من قبل ذويهم، إلا قليل.

أشارت لها أمل بيدها إشارة أن أكملي في اهتمام بالغ من أمل وتركيز عالٍ.

فتحت ندى هاتفها الجوال وعرضت عليها بعض الصور الفوتوغرافية لسيدات ورجال وأكدت أن أغلبهم تم التعرف إليهم واستلمهم ذووهم، إلا واحدة رفضت ذلك، وإلى الآن تجلس في الدار ويعولها أهلها وترفض الذهاب إليهم.

فتساءلت أمل عن قصتها، وكانت ندى ستشرع في السرد، لكن رن هاتف أمل معلنا اتصال عبد الرحمن.

-الو، أستاذة أمل، الحالة تم تجهيزها، ولكنه غير واعٍ الآن، فحالته الصحية حرجة.

-هل لي أن أراه الآن؟

-لا، الأفضل غدًا، أو حتى يفيق، فقد دخل في غيبوبة بسبب ارتفاع درجة الحرارة وتلوث جرحه، انزلي أريد أن أتحدث معك في أمر مهم، وافيني في مكتب الإدارة.

-حاضر حالًا، هيا يا يونس. أغلقت الخط واعتذرت من ندى ووعدتها أن تزورها غدًا وكل يوم، فالشغف قد تملّكها لتعرف مزيدًا عن أولئك المنسيين في الأرض.

وهي على الدرج جاءها اتصال فتوقفت وردت:

-وعليكم السلام....

-....

-حاضر، حالًا سأوافيك إلى هناك.

*****

كانت شمس مايو ترسل أشعتها الدافئة إلى أحد المقاهي العامة، وقد اقتربت الساعة من الواحدة ظهرًا، بينما يجلس شابٌّ على منضدة في أحد الأركان مستظلًا بمظلة خاصة بالمكان، يرتدي قميصًا عليه شعار (مأوى)، منزويًا ينظر في ساعة هاتفه كل دقيقة، يبدو عليه الانتظار والملل، وبعد برهة من الوقت لمحها من بعيد، فقام واقفًا رافعًا يده لافتًا نظرها لمكانه، لم تنتبه وظلت تبحث بعينيها، فاتصل عليها يخبرها بمكانه، كانت أمل ومعها يونس يرتديان كمامتين تخفيان نصف وجهيهما، اقتربت منه وسلمت عليه بلسانها ومد يونس يده كي لا يحرج الرجل الذي مد يده للسلام قائلًا:

-مرحبًا مدام أمل، أعتذر إن أثقلت عليكِ ولكن للضرورة أحكام.

ابتسمت وهي تخلع كمامتها قائلة:

-لا عليك أستاذ عبد الرحمن، لم أكن لأستريح في الحديث أمام العاملين بالدار.

أشار إليها بيديه مُرحبا أن تتفضل بالجلوس، وأجلس يونس بجواره مداعبا إياه، وقام بتشغيل أحد الألعاب الإلكترونية على هاتفه وأعطاه له كي ينشغل عنهما قليلًا.

طلب لثلاثتهم مشروبًا غازيًّا، فاعتذرت أمل وطلبت قهوة، فابتسم ساخرًا:

-هل أنتِ ممن يؤمنون أن الموضوعات العميقة لا يصلح معها إلا القهوة؟!

-وما علاقة القهوة بالموضوعات، القهوة مشروب كأي مشروب، لا علاقة له بالعمق ولا غيره، وإنما يعتاد الشخص عليه ويفضله عن غيره كالشاي وباقي المشروبات، ولعلمك أنا أشربها ولا أحتسيها!

فاتبسم ضاحكًا مما لفت نظر يونس وقال ببراءة:

-على ماذا تضحك؟

فأجابت أمل متداركة الموقف:

-لا شيء يبدو أن عمو عبد الرحمن سعيد بك.

فعاد الولد بنظره للهاتف، وأردف عبد الرحمن يقول:

-الموضوع باختصار بخصوص الرجل، بعد الفحوصات والأشعة تم نقله لمستشفى خاص وستتحمل الدار التكلفة، فحالته استدعت الرعاية المركزة...

فقاطعته أمل بخوف يشوبه القلق: رعاية؟ لِمْ؟ ماذا حدث؟ كان بالأمس يتحدث ويتحرك؟

فأكمل الشاب حديثه بنبرة هادئة أقرب للهمس:

-الرجل عُرّض لعملية سرقة كلية، ومع الأسف الكلية الأخرى لن تسعف الجسد وضعيفة جدًا، وكان لابد من تلقي بعض الأدوية والمنشطات والمساعدات الخارجية من محاليل وغيرها.

صمتت أمل وشردت قليلًا وتمتمت ببعض الكلمات غير المفهومة..

فاستفسر عبد الرحمن قائلًا:

-ماذا؟ ما سمعتك.

-أتذكر عندما جئتنا لتأخذه أول مرة ولم تجده؟

-نعم، أذكر.

-وقتها ذهبت للبحث عنه، وتوقعت أن يستغلوه كشحاذ أو متسول بسب علة عينيه، ولكن مع الأسف استغلوا جسده أسوأ استغلال!

قالتها بوهن وصوت متقطع بسبب الدموع التي تحبسها في مقلتيها كمن يكبح صنبورًا خَربًا أن تنطلق مياهه.

تعاطف عبد الرحمن معها وتنهد ثم أردف قائلًا:

-إذن، ما توقعته كان صوابًا، ما يهمنا الآن، نريد أيّة معلومات عن تلك العصابة دون أن يؤذيَكِ أحد.

-لا، لا، أرجوك، الوضع خطير، لقد أقحمت نفسي في مشكلة لست أهلًا لها، دعهم وشأنهم، المهم الآن كيف أستطيع الاطمئنان عليه.

كان عبد الرحمن يتفهم لهفتها عليه أولًا كرجل مشرد بلا مأوى، ولكنه الآن تعجب من لهفتها التي بلا سبب، فمشكلة التشرد والمأوى قد حُلّت، ولا داعي لاستعجال زيارته، فقال بهدوء:

-ليس الآن، عندما يخبرنا الطبيب سأخبرك.

-ومتى ذلك؟

-قلت لكِ، ليس الآن، ولا أعرف متى، الرجل وضعه حرج.

فأحست أمل بلهجة آمرة مستنكرة، فصمتت بينما أتى عامل المقهى بالمشاريب ووضعها أمامهم، فشرب ثلاثتهم ما طلبوا.

استأنفت حديثها ممسكة بقدح القهوة: متى أستطيع مباشرة عملي في قسم النساء عندكم؟

-غدًا إن أحببتِ، لكن لا يمكنك اصطحاب ابنك معك.

انتبه يونس للكلمة فنظر إليه قائلًا بغضب:

-أمي لا تخرج إلا معي.

فابتسم الشاب قائلًا:

-حتى في عملها؟

-لا، عملها تذهب له وحدها، ولكن عملها أغلبه من المنزل؛ لا يستدعي خروجها.

-إذن فهذا عمل جديد، ولا يمكن للأطفال الوجود فيه.

فقالت أمل ملاطفة إياه بعدما أحست بغيرته المبكرة عليها، عندما يعود عمك من المستشفى سآتي بك لتزوره، اتفقنا؟

فنظر شذرًا لعبد الرحمن وقام بإعادة هاتفه له قائلًا:

-اتفقنا.

أنهى ثلاثتهم المشاريب، واستأذنت أمل للذهاب، حيث إن الجو قد اشتدت حرارته، ولكن أوقفها عبد الرحمن:

-وماذا عن قصة الرجل والعصابة؟ إن ساعدتِني وأخبرتِني المعلومات التي بحوزتك، سنكون حديث وسائل التواصل الاجتماعي، وسنشتهر ويكبر نشاطنا، ويزيد دعمنا من رجال الأعمال و...

فالتفتت له بعد أن كادت تغادر وقاطعته:

-مستحيل، انسَ، سلام يا أستاذ عبد الرحمن..

صحيح كنت أريد أن أسألك، من الذي جعلك تعمل في العمل التطوعي وما سبب اهتمامك بالمشردين؟

صمت عبد الرحمن قليلًا وأحس أنها يمكن استعطافها بطريقة ما فأردف قائلًا:

كنت أعمل في فندق شيراتون كحارس أمن للجراج، وكانت هناك سيدة في العقد الخامس تقريبًا تجلس على الرصيف بمقابلة الجراج، بدت لي كالتائهة أو المجذوبة، تارة أراها نظيفة وترتدي أرقى الثياب وتهز في رأسها

بحركة معينة كمن تحدث أحدًا ما، وتارة أراها شعثة وملابسها قذرة تأكل من المخلفات، وتارة أخرى لا أجدها، ذات مرة سألت عامل الجراج عنها عندما افتقدتها، فأخبرني أنها أستاذة بالجامعة ومن عائلة مرموقة جدًا، كل فترة يأتي أحد أقاربها يأخذها وينظفها ويطعمها، ولكنها تتركهم لتأتي وتجلس في نفس المكان أمام جراج الفندق وهكذا دواليك، وأخبرني أن أهلها أوصوه بها خيرًا لأنهم سئموا ماتفعل وكان كل يوم يأتوها بالطعام والأغطية، ولكني أشفقت عليها ورق قلبي لها وكأنها قريبة لي.

آنذاك تساءلتُ هذه واحدة وحقيقتها هكذا ولها أهل يسألون عنها، فماذا يكون حال المئات من المشردين الذين نقابلهم يوميًّا في الشوارع والميادين؟

ومن يومها عزمت على العمل التطوعي وخدمة هؤلاء

بتوفير الطعام والكساء، إلى أن منَّ الله علينا وأنشأنا دار مأوى.

كانت أمل ويونس ينصتان بتركيز شديد، فلما توقف عبد الرحمن عن الكلام، سألته أمل:

_تُرى من تنتظر؟ وعن من تبحث؟ بالتأكيد عن حبيب مفقود تملك قلبها وروحها حتى هلكت هكذا...

_ ربما، وربما فقدت عقلها بسبب مرض عضوي ما، لا نستطيع أن نحدد، على أي حال الموضوع له احتمالات كثيرة... فقاطعته أمل لتستئذن وترحل بصحبة يونس.

تركته وذهبت مصطحبة ولدها، ولكن عبد الرحمن لم يفهمها ولم يستطع ترجمة ما يصدر عنها من تصرفات.

ولِمَ لَم تُعر الأمر اهتمامًا، إن كانت تهتم بالمشردين حقًّا لِمَ لم تبدِ أي اهتمام؟ أو حتى تسعى لتقديم المساعدة في موضوع عصابة سرقة الأعضاء؟...

"ليس مطلوبًا من كل منا أن يصير بطلًا في جميع الأحوال، يكفيه حال واحدة وليدع البقية للبقية"

حدثت نفسها بذلك عن اقتناع.

اختارت أمل أن تناضل للنهاية للعناية بالرجل ومساعدته في التعرف إلى أهله، مثل هؤلاء الذين سمعت عنهم من ندى، لم ترد أن تصبح بطلًا قوميًّا، تكشف عصابة خطِرة، لقد أيقنت أن ليس بوسعها كل ذلك، يكفيها أن تكون بطلة مع الرجل، وتظل كما هي أمّ يونس، تتعهد بأمانه وأمان أمها وليس حريًّا بها أن تحاول تحرير فلسطين وحدها، فيأتي العدوان ليدك بيتها على رأسها هي وأسرتها.

(فليذهبوا إلى الجحيم) قالتها مضمرة إياها، عندما شعرت من عبد الرحمن أنه يريد استغلالها ضاربًا بما قد تتعرض له هي وأسرتها من أذى عرض الحائط.

على طاولة الطعام مساءً أخبرت أمل والدتها أنها تستعد للذهاب إلى الدار، لم ترهقها والدتها على غير العادة، بل وافقت وعزمت أن تذهب معها لتشترك في هذا العمل الخيري، فرحت أمل بذلك، بل أحست لوهلة أنها تحب والدتها أكثر من أي وقت مضى، بل وكأنها لم تختلف معها قط.

وقامت مسرعة لتتصل بندى المسؤولة عن قسم النساء :

-ألو، السلام عليكم آنسة ندى.

-وعليكم السلام، أهلا مدام أمل.

-هل لي بطلب صغير؟

-تفضلي، لو في استطاعتي فلن أرده.

-والدتي تريد أن تأتي للعمل معي، هل مسموح؟

-تشرفنا طبعًا، ولكن تأخذ احتياطتها بسبب الفيروس المستجد.

-أسعدتِني والله، جزاكِ الله خيرًا، وولدي؟؟

-مع الأسف، ممنوع وجود الأطفال إلا للزيارات.

-طيب، سلمتِ، سنتصرف.

شعرت أمل بالضيق بسبب عدم إمكانية اصطحاب يونس، وأحست بعقبة تنتظرها.

فأخبرت والدتها بذلك فصمتت سمية ثم قالت:

_ سأتصل بجده ليأتي ويستضيفه ليقضي معه الأسبوع الذي اتفقنا عليه.

على الرغم من صعوبة الفكرة على أمل وإحساسها بالخوف من ابتعاد الطفل عنها إلا أنها وافقت على مضض، وخاصة بعدما رأت من يونس فرحته أن له جدّ وأهل يسألون عنه.

أحيانا يقدم الإنسان على أفعال لم يكن ليتوقع أن تصدر منه مهما حدث، ولكن لاضطراره، يستوعبها ويتقبلها، ولا يجد غضاضة فيها، كما فعلت أمل، وكما فعلت والدتها.

-هيا يا يونس، لنعدّ لك حقيبتك، فجدك آتٍ لأخذك ليستضيفك عندهم أسبوعًا، قد تحدثت إليه جدتك واتفقت معه، وسيأتي في الصباح الباكر.

قالتها أمل ليونس قبل أن يذهب لنومه، وكان قد سمع جدته وعلم بالأمر منها.

-ولم الإبكار يا أمي؟

-حتى يستطيع العودة قبل بداية الحظر.

-نعم، فهمت، تصبحين على خير.

-ولد ألن تحضر الحقيبة معي؟

-لا، أريد أن أنام، معذرة يا أمي، فاليوم كان مشحونًا.

قالها واضعًا يده على فمه يكتم تثاؤبه، ثم وضع قبلة على وجنة أمل.

في الصباح أتى الرجل في الثامنة صباحًا، ولم يطل المكوث، بل أخذ الولد وحقيبته وكانت أمل لم تنتهِ من إعداد الإفطار بعد.

اقتربت أمل من ولدها وودعته بحرارة كالتي لن تراه مرة ثانية، ثم ودعته جدته ورحل مع جده.

شردت أمل وبدا عليها الحزن والهمّ، فاقتربت منها والدتها بهمس:

-أتفهم شعورك، عندما تزوجتِ ورحل بك خالد، كان عندي الشعور نفسه.

تذكرت أمل وقتها أنها لم ترَ حتى قبلة منها ولا عناقًا، تعجبت وصمتت وآثرت ألا تتحدث في الموضوع كي لا تقلب على نفسها المواجع:

-دعينا نتجهز يا أمي ونذهب إلى دار الرعاية، فالبيت دون يونس لا يطاق.

أحست سمية في هذه اللحظة أنها ستذيب جبل الجليد الذي بينها وبين أمل ولكن يبدو أن أمل ليس عندها الرغبة لذلك.

عندما نحاول أن نصلح ما أفسدناه لسنين، نجد صعوبة في بادئ الأمر، لكن مع الإصرار، كل شيء ممكن حدوثه؛ فسقف الممكن مذهل.

عندما وصلتا إلى دار الرعاية استقبلتهما ندى ببشاشة ورقة، ورحبت بهما، كانتا طوال الطريق صامتتين، أمل مشغول بالها على يونس وسمية مشغول بالها على أمل، أُمَّان يأكل قلبيهما قلق واحد، وإن اختلفت الوجهة لكل منهما.

بدأت ندى توجه أمل لكيفية العناية بالنزيلات، أما والدتها فوكّلت لها مهمة تسلية النزيلات بالجلوس معهن وتعليمهن مبادئ الصلاة والعبادات..

-لقد صرتِ ستنا الشيخة سمية.. قالتها أمل ببعض الدعابة فتقبلتها أمها قبولًا حسنًا، وتبسمت قائلة:

-لا تعاير بالذنب أخيك فيعافيك الله ويبتليك.

-وحبذا هذا الذنب!

عندما دخلت على غرفة إحدى النزيلات، وجدتها منزوية تجلس وحدها تنظر إلى الشرفة وتقرأ أحد الكتب، فألقت عليها السلام، ردته الفتاة على مضض، كانت ندى تهوّي غرفة الفتاة وترتبها وتحاول ألا تحتك بها، وأمل تساعد ندى والفضول يأكلها أكلًا لتعرف قصتها.

عندما انتهيتا من ترتيب الغرفة ذهبا لبهو المكان وجلستا لتناول بعض القهوة واسترسلت ندى دون طلب من أمل:

-هذه من أخبرتك عنها التي رفضت أن يتسلمها أهلها.

أنصتت أمل وكلها آذان صاغية، مشيرة بيدها لندى أن أكملي، فاستجابت ندى بعد أن رحبت بسمية التي أنهت مهمتها وانضمت للجلسة.

-"وجدناها تحت أحد الكباري شعثة الشعر، تجلس بجوار أحد أكوام القمامة الذي اتخذته متكأً لها ومأوى، شاردة يلقبها الناس -مع الأسف- بأمنا الغولة، متنمرين على سمار بشرتها ووزنها الزائد، يلقيها الأطفال بالمخلفات، كانت تهاجم الأطفال مدافعة عن نفسها، ولما تضايق أحد السكان على ابنه لما قذفته بحجر شج رأس الطفل، تحركنا إليها بعد أن جاءنا بلاغٌ من أحد سكان المنطقة الذي سمع عنا عن طريق الفيسبوك، ووجد الرجل يريد أن ينتقم منها فحماها واتصل بنا.

قاطعتها سمية:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، إنها قصة تدمي القلب.

-لم تسمعي شيئًا بعد يا أماه، انتظري، واسمحي لي أنا ألقبك بأمي إن لم تمانعي، فأمي وأبي منفصلان وأعيش مع والدي، وقد غادرت أمي البلاد منذ أمد بعيد.

فتتبسمت سمية وربتت على كتفها:

-وهل أنا أستحق بنتًا مثلك، لي الشرف يا ندى.

أحست أمل بغيرة غريبة عليها، فلم تسمع هذه الكلمة من أمها قط، وحاولت أن تخبئ ذلك قائلة:

-أكملي يا ندى.

فتابعت ندى السرد بينما سمية تبتسم عندما شعرت بغيرة أمل من ندى، إنه لإحساس جميل أن تجد فتاتين تتقاتلان عليكِ غيرة كأمٍّ لهما.

-ذهبنا لها وجلسنا معها، رفضت في بادئ الأمر، ولكن بعد أن تحدثت معها الاختصاصية النفسية، وافقت على مرافقتنا، حممناها ومشطنا لها شعرها، طلبت حجابًا تغطي به شعرها، طلبت أن تصلي، وطلبت مصحفًا، كل ذلك بدا طبيعيًّا، ولكن القادم كان مفاجأة لنا، عندما نشرنا صورها على صفحتنا على الفيسبوك، اتصلت بنا إحدى المتابعات وقالت إنها أختها، وأرادت استلامها، فحددنا لها موعد وجاءت ملتزمة به، وعندما قابلت فاطمة..

قاطعتها سمية: أَسمها فاطمة؟

-نعم يا أماه..

-اتركيها تكمل يا أمي، ولا تقاطعيها. قالتها أمل بتأفف.

-آسفة، أكملي يا ندى.

-لا عليك، المهم عندما رأت فاطمة أختها انزعجت جدًا، وانزوت بعيدًا مولية ظهرها لأختها، معلنة رفضها تلك المقابلة، ولما استفسرنا عن الأمر طلبت أختها أن تصطحبها، وهنا جنّ جنون فاطمة ودخلت في هستيرية صراخ وبكاء، وألقمت أختها حجرًا ألجمنا جميعًا:

-أنا أكرهكم جميعًا، أموت ولا أعود إليكم، أنتم شياطين.

اضطررنا لتهدئة الموقف، وأخرجنا أختها للخارج، ولما استفسرنا منها قالت:

-توفي أبي وأمي وكانت فاطمة لا تزال طفلة، رعاها أخي وزوجته، وكنت أنا متزوجة حديثًا، فكنت أزورها من وقت لآخر، طلبت من زوجي استضافتها فرفض ذلك، وكانت زوجة أخي سامحها الله تعاملها كالخادمة، حتى وصلت للثانوية العامة، وحصلت على مجموع كبير يؤهلها لكلية الطب، وكان أبي قد ترك لنا ميراثًا كبيرًا، ولما رفضت زوجة أخي أن تكمل فاطمة تعليمها، ثارت فاطمة وطالبت بحقها في الميراث، وافتعلت مع زوجة أخي عديدًا من المشكلات، مما اضطر أخي إلى حرمانها من ميراثها، ومن هنا بدأت المأساة، صارت تأكل بنهم شديد حتى زاد وزنها، لا تتحدث مع أحد، لا تفعل شيئًا سوى الأكل، وفي يوم وجدها أخي تضرب زوجته وتحاول أن تخنقها، فثار عليها وضربها ضربًا مبرحًا، وعايرها بزيادة وزنها وسمارها، وطردها من المنزل، أخي يرى أنه على حق، ولكن أختي لم تكن

هكذا، كانت ذكية وملتزمة وهادئة، وبسبب جبروت زوجة أخي تحولت فاطمة إلى مسخ، بحثت عنها كثيرًا فلم أجدها، بلغت في جميع المشافي والأقسام ورجعت بخفي حُنين، ولما رأى ابني صورتها على صفحتكم بلغني، وكان ذلك بعد مرور أربعة أعوام من فقدانها ويزيد، أخي مريض بالسرطان وبين الحياة والموت طلب مني أكثر من مرة بكل وهن أن أبحث عن فاطمة لتسامحه قبل أن يموت، ولكنني فشلت، ولّما وجدتها، وشعرت أن أخي سيستريح قبل وفاته، رفضتني أنا الأخرى، على الرغم من أني لم أؤذِها يومًا، وضعتنا كلنا في سلة واحدة كالبيض الفاسد..

أنهت أخت فاطمة قصتها ورحلت، وحاليًا فاطمة في مرحلة تأهيل نفسي، لأنه بالكشف عنها وجدناها عُرّضت للاغتصاب والتعذيب من تواجدها في الشارع بلا مأوى، وإلى الآن لم تتعافَ، والغريب أننا وجدنا معها نقودًا كثيرة، يبدو أن الناس كانوا يظنونها شحاذة.

-إن لم تحكِ لي ذلك بنفسك يا ندى لظننته خيالًا أو فيلمًا هنديًّا كلاسيكيًّا، لله درها فاطمة، وربي ينتقم ممن ظلمها وجعلها هكذا، وجعت قلبي قصتها.

قالتها سمية والدموع تترقرق في مقلتيها، انتبهت أمل لما قالته أمها ولوهلة تخيلت نفسها مكان فاطمة فانخرطت في نحيب وبكاء إثر ما سمعت وأحست، ولما هدّأتها والدتها وندى قالت:

-عقوق الإخوة أشد فتكًا من عقوق الأبناء، حسبي الله وكفى، في رأيي إن تعافت وعادت لرشدها لا تسامحه وتتركه يأخذ جزاءه جراء ما فعل هو وزوجته.

فردت سمية مستنكرة:

-لم أعهدك قاسية هكذا يا أمل؟

-عذرًا يا أمي؛ كثرة البكاء تعلم القسوة.

صمتت سمية حتى لا تثير غضب الحليم، ولكنها أسرّتها في نفسها وأيقنت جيدًا أنها تقصد نفسها بالكلام وليس فاطمة.

حاولت ندى تهدئة الأجواء فقالت:

-هيا ننتهي من باقي المهام، ستأتي المتطوعات اللائي سيبتن معهن، بعد أن ننهي مهامنا نحن.

عندما عادتا إلى المنزل، دخلت كل واحدة منهما حجرتها لأخذ قسطٍ من الراحة، وفي المساء قامت أمل لتحضر وجبة للعشاء، فوجدت أمها قد سبقتها إلى المطبخ فساعدتها ودار بينهما حديث عادي:

-هل تواصلتِ مع جد يونس؟

-نعم، وتحدثت مع يونس لساعة كاملة، ظل يقص عليّ قصصًا عن الريف وغرابته وهدوئه، يبدو أنه سعيد بالتغيير.

-على الرغم من مشاكسته، التي ورثها من أبيه إلا إنه ورث منكِ طباعك، حتى ملاحظاته غريبة مثل ملاحظاتك.

-أتدرين يا أمي، لا أريده أن يصير من الأوائل، ليلتحق بإحدى كليات القمة، ولكن أريده فقط أن يفكر ويتأمل؛ ليكون مختلفًا ومبدعًا مميزًا بين الحق والباطل، عنده علم عن كل شيء ولو كان بسيطًا، لا أريده مهتما بفرع واحد من العلوم دون باقي العلوم أو يكون فتى ساذجًا بلا خبرات لمجرد أنني جعلته ينخرط في المذاكرة دون الانخراط في الحياة ومداركها.

-غريب أمرك يا أمل، وهل كل أمهات الجيل الحديث مثلك هكذا؟

-لا أدري، ولكن تعليم الطفل هنا في مصر يظلمه ويحوله لآلة ما لم يكن لديه أبوان واعيان يثقفانه ويعلمانه أهمية القراءة والاطلاع.

-ادعي لأبيكِ طاهر فهو من أسس ذلك فيكِ، وجعلك تتحدثين هكذا، على الرغم من أنكِ لست ابنته عصبًا، إلا أنك ورثتِ طريقة حديثه وتفكيره.

ابتسمت أمل وشردت قائلة:

-لا أظن أن أحدًا امتلك أبًا رائعًا مثلي؛ رحمه الله رحمة واسعة.

فأحست أنها نسيت أمها فتداركت قائلة: ولا أمًّا رَءومًا أيضًا.

فتبسّمت سمية وشرعا في تناول الطعام.

"يبدو أن أمي تغيرت بنسبة كبيرة، أكاد أجزم أنني متفاجئة حقًّا، منذ أن رأت ذلك الأعمى عن قرب ورأت حالته، تبدّلت تمامًا، صارت تتحدث معي وتهتم لأمري، صارت تهتم بما أهتم به، إنها تشعرني بالذنب تجاه ما كنت أظنه بها، غفر الله لي وهداني"

أغلقت أمل دفترها بعد أن دونت تلك الخاطرة، ولكنها لم تستطع أن تستوعب ذلك بسهولة.

في اليوم التالي، ذهبت للدار مع أمها، ولكنها مرّت بعبد الرحمن أولًا تسأل عن الرجل وعن حالته، فأخبرها أنه مازال في غيبوبة، ولكن حالته مستقرّة.

اطمأنّت وصعدت للطابق الثالث، وجدت ندى وزميلاتها يقمن بتأهيل حالة جديدة، فأرادت أن تشاركهن، فوافقت ندى واستمتعت أمل بذلك، كانت سيدة في العقد الرابع من العمر، نحيلة الجسد طويلة القامة، شعرها محلوق كشعر الرجال، أخذت بشرتها لون التراب، تدعي نورا، جاء بها أحد المتطوعين من الشباب بعد أن عثر عليها تنام على أحد كباري المشاة مفترشة أرضية الكوبري ببعض الكرتون والأغطية الممزقة القذرة.

بعد أن انتهوا من تأهيلها وتحميمها وإلباسها ملابسَ نظيفة، تم عرضها على الطبيب، وأبلغهم أنها لا تعاني من أي أمراض ظاهرية سوى سوء التغذية، ووصف لها بعض المقويات مع الطعام الجيد.

-أتدرين يا ندى قصتها؟

-لا، ليس بعد، أغلب القصص تُعرف عندما يتعرف إليهم ذووهم.

إن أردتِ أن تسمعي قصةً فتعالي ورائي، سأريكِ شيئًا على هاتفي.

قاطعتها سمية: وأنا أيضًا أريد أن أسمع.

فأومأت ندى برأسها:

-هذا أساسي.

جلسن ثلاثتهن في بهو الشقة يتناولن الإفطار وبعد الانتهاء، أخرجت ندى هاتفها وفتحت ملف الصور وعرضت عليهما صورة لمقام في كوخ من البوص والقش وسط أحد الحقول.

تعجبت أمل قائلة: ما هذا؟

فأجابتها ندى: كما ترين، مقام يزوره الناس ليتبركوا به؟!

فقالت سمية:

-أين ذلك؟ وما قصته؟

فتنهدت ندى قائلة:

-كنت طفلة آنذاك، ذهبت مع أمي وأبي قبل أن ينفصلا لزيارة عمي في قرية بمحافظة المنوفية في إحدى الإجازات، كنا في طريقنا للحقل أنا وأمي وزوجة عمي وابنة عمي لتناول الشاي على الفحم وشيّ الذرة، وكان طريق الحقل مليئًا بالأشجار العالية على ضفتي قناة عذبة هادئة، كنت خائفة

من هذا الطريق، فأخبرت أمي هامسة، فطمأنتني قائلة: لا تخافي مازلنا بالنهار ولكن الشجر يخبئ ضوء الشمس فيبدو الجو مظلمًا، فتشبثت بها خوفا طالبة الإحساس بالأمان، سخرت مني ابنة عمي قائلة: أنتم هكذا يا بنات مصر، تخافون من أي شيء، فنظرت لأمي وعيني امتلأت بالدموع، فزجرتها أمي مدافعة عني، فشعرت أنني لي ظهر قوي.

فقاطعتها سمية:

-ربي يجمعك بها عاجلًا غير آجلٍ.

-آمين، سلمتِ..

كانت أمل تضع يدها على خدها في حالة تركيز لسماع القصة:

-أكملي أكملي.

فأردفت ندى:

-ظهر من وسط الأشجار على ضفة القناة الأخرى سيدة تشبه التي جاءتنا اليوم، حليقة الشعر لونها يشبه لون التراب، نحيلة الجسد، ولكن قدميها كانتا موثقتين بسلسلة من حديد وقفل صدئ، حافية تسير ببطء شديد، ترتدي جلبابًا قصيرًا بكرانيش عند الذيل، مزركشًا ونظيفًا على الرغم من قذارتها هي، وفجأة نادت قائلة:

-كيف حالك يا ندى؟ وأنتِ يا غادة؟

كانت تقصدني أنا وأمي فارتعبت ورأيت الرعب في عين أمي، ولكن زوجة عمي هدأت من روعنا بهمس قائلة:

-هذه سُعدة المجنونة، تعرف كل شيء عن أي أحد يمر عليها، جاروها في الكلام وردوا عليها وكأنكم تعرفونها حتى لا تثيروا غضبها.

زاد رعبي ورعب أمي فردت أمي:

-الحمد لله، كيف حالك يا سُعدة؟

فردت المرأة:

-أنا بخير، المهم أنتِ وزوجك، كفوا عن المشكلات والخلافات.

وقتها شعرت أمي بخوفٍ شديد فتشبثت بي وأحسستُ أن يد أمي تؤلمني إثر ضغطها على كتفي، فنبهت أمي.

وأتبعت المرأة تقول:

-أريد بعض الكرملة (الحلوى) من التى في جيب فستان ندى.

في هذه اللحظة توقفنا عن السير ووضعت يدي على فمي وشهقت بشدة ويدي الأخرى في جيبي أتحسس ما به، وفعلًا كان في جيبي بعض الحلوى التي نسيتها.

فقالت زوجة عمي:

-أعطوها ما تريد لترحل.

-فأخرجت أمي من جيبي بعض الحلوى وبدأت تقذفها إليها باتجاه الضفة المقابلة، ومن الغريب أنها تلقفتها جميعًا، ولم تسقط واحدة من يدها. تركتنا ودخلت أحد الأكواخ المعدة من الخوص والقش وقالت لأمي:

_أنتِ طيبة يا غادة، لكنك لن تربي ندى، ثم اختفت عن نظرنا داخل الكوخ وتركت بداخلنا ألف سؤال.

لّما تساءلت أمي عن سُعدة، قالت زوجة عمي:

-كانت شابة جميلة شعرها كسلاسل الذهب، عيناها كخضرة تلك الحقول ممشوقة الجسد، ابنة أحد أعيان البلد، كان عندهم أراضٍ ومخزن كبير لفرز قش الأرز والتبن، وكان يعمل به شابٌ متواضعٌ، أحبها وتقدم لها، رفضه أبيها وقام بفصله عن عمله، وكانت سعدة متعلقة به تمامًا، فأغواها الشاب وهربت إليه ليتزوجها، ولكن أباها علم بذلك، وقام بقتله أمامها وأخذها حبسها في البيت في حجرة بجوار حظيرة البهائم، وقيدها وحلق لها رأسها، وحرمها من الميراث وأعطى ميراثها لأخيها بشرط أنه كلما طال شعرها حلقه لها، وكلما فكت قيدها قيّدها من جديد، وأوكل تلك المهمة إلى أخيها، جنت بحبيبها وصارت تردد اسمه ليل نهار إلى أن فقدت عقلها وصار الناس يطلقون عليها سعدة المجنونة، فبنى لها أخوها ذلك الكوخ بين الحقول وتركها فيه، فاعتادت على الكوخ واعتادت على أن تعيش بمفردها مقيدة الرجلين، وها هي الآن بلغت ما يقرب من الخامسة والأربعين عامًا،

بعد عنها كل الناس حتى أخوها، واعتاد الناس عليها، تسير بين الحقول تتحدث معهم وتختفي تخبرهم بأسرارهم وتختفي، جميعهم قالوا إنها ملبوسة من كثرة الصراخ والمكوث بمفردها في مكان قذر وارتدائها الثياب الرثة. ولكن الناس تجاريها مخافة أذيتها.

لما رجعنا القاهرة، وحاولت أن أتحدث عنها، منعتني أمي عن الحديث تمامًا، وفي السنة نفسها طُلّقت أمي، ورحلت بعيدًا، وعندما التحقت بالعمل في هذه الدار، قمت بإرسال قافلة للإتيان بها إن كانت على قيد الحياة ولكنهم وجدوا أنها ماتت ودفنها الناس مكانها، وأقاموا عليها مقامًا يتبركون به وسموه مقام ستنا سعدة.

فقالت سمية:

-أتقصدين ذلك المقام الذي في الصورة؟

-نعم، هو.

شردت أمل قليلًا، ثم قالت:

-كما يفعل الحب المعجزات، يفعل الكوارث، ويترك لنا بقايا آدميين. أتعلمين يا ندى، سعدة هذه ليست الوحيدة التي فقدت عقلها، سبقها كثيرون وكثيرات.. وأشهرهم قيس مجنون ليلى، لله در الصابرين على ألم الفراق، إما الجنون، وإما العيش حزنًا وحسرة كبقايا آدميين.

أعجبتْ ندى بما قالته أمل:

-كلامك جميل جدًا يا أمل يشبه كلام الروايات.

فتوترت أمل قائلة:

-روايات؟ كلامي أنا؟ على الرغم من روعة فن الروايات إلا إنني لما بدأت القراءة فيه، بدأت القراءة الإلكترونية، مع الأسف، بدأت بروايات عقيمة، تعوم في المثالية المفرطة، لا تمت للواقع بصلة.. شخصيات ملائكية ما أنزل الله بها من سلطان، حكايتهم مكررة، وليس بها أي جديد أو حتى تناول قضايا شائكة غير الحب الحلال وضوابط الخطبة التي أعيد تناولها في جميع الروايات التي قرأتها، ناهيك عن الأسماء التي تشعرك أنكِ في عالم آخر لا يعرف من الأسماء إلا (حور وحياء ووعد وعهد.. إلخ)، فقررت ألا أقرأ روايات مرة أخرى.

فردت سمية:

-مخطئة يا أمل، عندنا في المنزل روايات عديدة كنت قد أخفيتها عنك، كروايات نبيل فاروق ود.أحمد خالد توفيق، وأجاثا كريستي، كلها روايات رائعة وممتعة.

-وكيف لي أن أقرأها وأنتِ من خبّأتِها، ولم خبأتِها عني؟

-حتى لا تنشغلي بهم عن الدراسة، أنا كسمية قرأتهم جميعًا، ستجدينهم في مكتبة طاهر رحمه الله التي في غرفتي.

فردت ندى متحمسة:

-إذن فسأستعير منكِ، فأنا أحب كل تلك الروايات باختلافها وتنوعها.

فردت سمية مرحبة:

-المكتبة كلها تحت إمرتك.

تعجبت أمل محدثة نفسها:

_ما كل هذا الكرم، أخفيتِهم عني ثلاثين عامًا وتأتي ندي لتأخذهم في ثلاثة أيام فقط؟!

"ما هذه الفتاة! أسرت عقل أمي وعقلي أنا للحق، خفة ظل وحماسة وتفاؤل على الرغم مما مرت به من ظروف، مقبلة على الحياة وتشع بهجة وسرورًا، كأنها شمسٌ لا تحترق، وقمر لا يتحول محاقًا مهما حدث، أحيانًا نقابل أشخاصًا مميزين تتمنى أن تكون مثلهم، ولكنك لا تعلم مدى صعوبة ما مروا بهم، فربما إن مررت به لانتكست"

-تعالي يا أمل اجلسي معنا، ماذا تكتبين؟

تساءلت ندى، وكانت أمل تجلس بجوار إحدى الشرفات بجوار إحدى النزيلات، تتأمل الخارج وتكتب، فشعرت بالحرج وأسرعت في إغلاق دفترها قائلة:

-لا شيء، فقط أدون بعض التُّرَّهات..

اقتربت ندى منها قائلة:

-هههه تراهات؟!هل لي أن أقرأها؟

انزعجت أمل من هذا الفضول قائلة:

-لا، طبعًا، هذه خواطري الخاصة ومذكراتي، بها كل أسراري.

فاعتذرت ندى بأدب جمّ:

-لم أقصد اقتحام خصوصيتك، أنا فقط مولعة بالقراءة، خاصة لو لأحد ذكي مثلك.

استطاعت ندى تدارك الأمر بذكائها وأدبها، فتحرجت أمل قائلة:

-لا داعي للاعتذار، أنا فقط أخجل أن يقرأ أحد ما أكتب، اليوم أنتِ مدعوة للغداء عندنا، وفرصة كي نكتشف سويًّا الكنز في مكتبة أبي.

رحبت ندى بالفكرة وطلبت منها أن تستأذن والدها أولًا.

رن هاتف أمل وندى معلنا وصول رسالة "واتساب" من إدارة الدار:

(أحد الحالات تعرف إليه أهله وآتون لاستلامه، رجاء النزول لحضور هذه المناسبة).

استبشرت أمل وندى بما قرأتا وسارعتا في النزول، عندما رأته ندى قالت:

-ما هذا، رجل حمام السباحة؟ سبحان الله.

كان كلامها مبهمًا لأمل فغمزتها أمل:

-أفهميني!

فهمست ندى قائلة:

-سأخبرك بقصته بعد رحيلهم.

التقطت إدارة الدار صورًا تذكارية للرجل وأهله وقاموا بتوزيع الشيكولاتة والمشروبات الباردة على جميع الحضور في احتفال مصغر، أعده عبدالرحمن وزملاؤه.

ما أن شاهدت أمل الرجل، أحست بفضول شديد لتعرف قصته، وازداد الأمل بداخلها في أن يتعرف أهل الأعمى إليه وتطمئن عليه.

في الطريق إلى المنزل في إحدى سيارات الأجرة، حكت لها ندى قصة الرجل:

-كان يجلس في ميدان التحرير، رجل سمين جدًا لا يبرح مكانه مهما حدث، حتى وقت الثورة وما بعدها من أحداث دامية، تعرف إليه أحد العاملين بدار الرعاية، في هذا الوقت كانت الدار ليس لها نشاط داخل المقر بعد، كان كل نشاطها يتلخص فقط في أن يمروا على هؤلاء المشردين يمدونهم بالبطاطين والأغطية والوجبات من آن إلى آخر، ومازال هذا نشاطًا معتمدًا في الدار حتى بعد إنشائها، وكان المقر مخزنًا للتبرعات الغنية ومكانًا لطبخ الطعام لهم، ولكن هذا الرجل وجدوا بحوزته مبلغًا كبيرًا جدًا

من المال، تخطى الخمسين ألفًا من الجنيهات، فاتفق الشباب، وكان عندهم المكان وهو مقر الدار حاليا وقد كان بيتًا مملوكًا لوالد أحد الشباب وتبرع به للدار، على أن يجهزوا المكان بذلك المبلغ ويأخذونه ليعيش فيه، ومن هنا جاءت فكرة دار مأوى لرعاية المشردين، وقاموا بتنظيف الرجل وعلاجه وحلق شعره ولحيته، وأخذوه في رحلة إلى أحد حمامات السباحة في أحد النوادي، وقاموا بالتقاط الصور له.

هنا أخرجت ندي هاتفها وعرضت الصور على أمل ووالدتها قبل التأهيل وبعده وفي أثناء لهوه داخل حمام السباحة، كان عمره يتخطى الثلاثين، ولكن عقله عقل طفل لا يتعدى التسع سنوات.

نزلن من السيارة بعد أن وصلن إلى منزل أمل، وسارعت أمل ووالدتها بتحضير الغداء، وفي أثناء التحضير ساعدتها ندى وأكملت القصة:

-عندما نُشرت صور الرجل قبل وبعد التأهيل على الفيسبوك، نالت شهرة واسعة وعرفه الناس برجل حمام السباحة، وجاءت اتصالات عدة لدعم الدار والتبرع لها، وتم التصريح لنا من قبل الدولة لممارسة النشاط بشكل رسمي، وتم اعتماد اسمها دار (مأوى) لرعاية المشردين، ومنذ بضعة أيام تواصل أحد الرجال مع إدارة الدار وأخبرهم أنه ابن عم رجل حمام السباحة، وأرسل لنا صوره وهو طفل، وحدد له ميعادًا لاستلامه.

قاطعتها سمية:

-ما قصته وقصة تشرده؟

-كان طفلًا يعاني من مرض نادر أدى إلى ضمور بعض خلايا مخه، فمهما كبر جسده يتوقف عقله عند سن الطفولة ولا ينضج، وكانت أمه تصطحبه للعلاج في مستشفى أبو الريش، وتاه منها في ميدان العتبة، بحثت عنه كثيرًا ولم تعثر عليه، ولما فقدت الأمل ماتت بحسرتها عليه، بعد أن أمرها زوجها بعدم البحث عنه، وكان يقول لها مبررًا موقفه: ربنا عالم بنا، رحمنا من حِمله وهمه، لا ينقصنا أطفالٌ متخلفون.

مرضت المرأة وماتت بحسرتها، وتزوج الرجل ولم ينجب تمامًا، وعندما انتشرت صوره على الفيسبوك، تعرف إليه عمه، وأرسل ابنه ليأخذه ليعيش مع والده الذي بلغ من العمر أرذله، وكما رأيتم أتى اليوم واحتفل معنا وأخذه، ولكن قصة النقود خمناها، أنه عُرّض للخطف من أحد عصابات التسول، ولما كبر وكبر همه تركوه، ولكنه لم يكفّ عن التسول بدليل المال الذي وجدناه معه.

-أتصدقين بالله؟

-لا إله إلا الله.

-حكاياتك أمتع من المسلسلات الهندية التي أتابعها.

ضحكت ندى من حديث سمية، وقامت لتقبل رأسها قائلة:

-وما خفي كان أعظم، دائمًا ما يخبئه لنا المستقبل أكثر إثارة مما حدث بالماضي.

هيا لناكل فقد أكل الجوع معدتي، أم ستصومونني عندكم؟!

ردت أمل والتي كان تضع الطعام على طاولة السفرة:

-حالًا يا شهرزاد.

-شهرزاد؟ ماذا تقصدين؟

-حكاياتك أمتع من حكايات شهرزاد، تمتعني لأنها حكايات إنسانية تمس قلبي وعقلي تثير بداخلي مشاعر شتى أليس كذلك يا أمي؟

-بلى وربي، أنتِ يا ندى هدية من الله لأي أحد يتعرف إليكِ.

ابتسمت ندى بخجل واضح:

-إحم إحم، لتعلموا، أنا أخجل والله، لكن لا بأس بقليل من الزهو.

فضحكوا جميعًا وقالت أمل:

-ليت يونس هنا، لو جلس معك لأحببتِه وأحبك.

-وأين هو؟

ردت سمية: عند جده وجدته في الشرقية.

رن هاتف أمل معلنا اتصال عبد الرحمن:

فاضطربت وزادت دقات قلبها وردت عليه:

-ألو.

-السلام عليكم، أريد منك الأوراق الشخصية الخاصة بالرجل.

-وأين هي؟ لا أعلم مكانها.

-ابحثي في أغراضه التي عندك، سأرسل لك تسجيلًا للرجل حكى لي قصته وسجلته وأظننا سنصل لأهله قريبًا.

-سأبحث عنه حالًا، هل حلقتم له شعره ولحيته؟

-نعم، وشكله تغيّر تمامًا، أظنك لن تعرفيه خاصة بعد أن تحمّم وارتدى ملابس جديدة.

تحمست أمل جدًا وقالت له:

-سآتيك حالًا.

-لا، فالزيارة أغلقت، غدًا إن شاء الله تأتين بأوراقه الشخصية.

-اتفقنا، سلام.

أغلقت الخط وأخذت تبحث داخل الصندوق ولم تجد شيئًا، وتذكرت التسجيل فقامت بفتحه:

-احكِ لي حكايتك يا حاج، لعلنا نستطيع أن نصل لأهلك، لقد وجدتك واعيًا، وعاقلًا.

-آخر ما أتذكره أنني خرجت من المستشفى، وكان نظري ضعيفًا جدًا، أقرب للعمى، وجدت أحد الأطباء كتب لي على خروج بعدما أفقت من العملية، وظللت لمدة ثلاثة أيام لا يزورني أحد، فسلمني الطبيب

أوراقي، ومضيتُ على خروج وخرجت، عند خروجي من المستشفى تشوّش نظري وأصبت بدوار، وكنت لا أتذكر من أنا، أو من أين أتيت، فسرت كثيرًا حتى وصلت لميدان واسع، وفي أثناء عبوري صدمتني سيارة ما، وأخذني السائق إلى بيته ومكثت عنده ما يقرب من شهر أو يزيد، عالجني وأطعمني، وأحسن مثواي، ولكن زوجته كانت لا تطيقني، وتختلق المشكلات يوميًّا، فآثرت الرحيل في صمت، ولكني نسيت عنده كل أوراقي حتى بطاقة هويتي التي لا أعلم ما بها، همت على وجهي في الشوارع شهورًا كثيرة، آكل من تبرعات المارة، أنام على الأرصفة، إلى أن لمحت شيئا مألوفًا بالنسبة لي، كان تمثالاً لعروس البحر، تمثال ذهبي شعرت أنني أعرفه منذ أمد بعيد، فسرت إليه وصرت أطوف حوله يوميًّا، أسير وأتسكع في الشوارع التي تحيط به، كان صاحب المطعم المقابل له يعطف عليّ من آن إلى آخر، وكان يأويني في مخزن السمك كل ليلة، ولما مات بعدها بسنين عدة جاء ورثته وطردوني، وكنت قد فقدت بصري تمامًا جراء الإهمال، لم أستطع البعد كثيرًا عن الشيء الوحيد الذي أتذكره، فصرت أجلس بالقرب من التمثال، وكلما رآني أحد الورثة أبعدني وزجرني، حتى انتهى بي الحال أمام منزل أم يونس.

انقطع التسجيل، فأسرعت سمية تقول لها أكملي التسجيل أكمليه سريعًا. فتعجبت واضطربت قليلًا وأخبرت والدتها:

-هذا أخره.

فردت سمية بتوتر:

-أريد أن أعرف بقية القصة، اتصلي بعبد الرحمن واجعليه يصور الرجل ويرسل لنا صورته بعد الحلاقة.

وعجبت أمل من إصرار والدتها وشغفها بمعرفة باقي القصة، فأعزت ذلك إلى ولعها بالمسلسلات الهندية.

اتصلت أمل بعبد الرحمن فأخبرها أنه عاد إلى منزله من وقت إرسال التسجيل، وأما عن الصور فتستطيع رؤيتها على صفحة الدار على الفيسبوك.

أسرعت أمل تفتح حاسوبها وتتفحص الصور، وسمية وراءها تكتم شهقة واضعة يدها على فمها، تحججت سمية أنها أصيبت بنزلة معوية ودخلت الحمام مسرعة، وظلت تتقيأ إلى أن فرغت معدتها، والتصقت بطنها بظهرها، فاتكأت على الحوض تنظر في المرآة التي تعلو الحوض وتتأمل تجاعيد وجهها التي بدأت ترتسم حول عينيها وفمها، تبكي بلا دموع..

دقائق قليلة وحدّث عبد الرحمن أمل في الهاتف:

-أبشري يا أستاذة، اتصل أحد المتابعين وقال إنه تعرف إلى الرجل وعنده ما يثبت ذلك.

علت دقات قلب أمل وصمتت عند سماعها الخبر اختلطت مشاعرها بين الفرح والانقباض، فرح بقرب نجاة الرجل، وانقباض من أن تفقده ثانية، غفلت عن والدتها التي اختبأت في غرفتها كمن تهرب من مصير مجهول، أوصلت ندى للخارج بعد أن انشغلا في متابعة الصفحة الخاصة بالدار ومتابعة التعليقات الخاصة بمنشور الأعمى، تذكرت مرض والدتها المفاجيء فدخلت لتطمئن عليها، فوجدتها نائمة.

قالت بصوت مهموس: غريبة، كان عندها فضول أكثر مني لتراه؟!

خلدت أمل إلى فراشها وكلها أمل هذه المرة أن تطمئن على الرجل، يختلج ذلك الأمل بعض اليأس، يأسها من أن تراه مرة أخرى بشكل دائم، هي تدرك أنها ستراه على فترات عن طريق زيارته في المكان الذي سينتقل إليه، غاصت في أحلام يقظتها إلى أن اختلطت بأحلام نومها.

في اليوم التالي ذهبت أمل للدار بحماسة يشوبها الخوف، تعذرت أمها بسبب وعكتها الصحية، وحقيقة لم تنَم سمية طيلة الليل وكانت تلك الليلة من أصعب ما مر عليها، وصلت أمل إلى الدار وطلبت زيارة الرجل، فأذن لها عبد الرحمن، دخلت وجلست إليه، ألقت السلام، فرده بوهن، ثُم أردف يتساءل عن يونس:

-أين يونس لا أسمع له صوتًا؟

-إنه في إجازة عند بعض الأقارب.

-هل سيتأخر؟

-لا، سيعود قريبًا إن شاء الله.

ظلت معه حتى أتى الرجل الذي قال إنه يعرفه، وقام بإعطاء الأوراق التي بحوزته للإدارة، فكانت أوراق الخروج من المستشفى وبطاقة ورقية قديمة. استأذنت أمل أن تنظر في الأوراق ولما نظرت في البطاقة، وجدت البطاقة تحمل اسم (أيوب عبد الرحيم)، لم تصدق أمل ما رأت

أخذت تنظر للبطاقة تارة وللرجل تارة أخرى، دموع تنهمر بلاصوت، عبدالرحمن ينادي عليها:

أستاذة أمل..أستاذة أمل، ما بكِ؟!

نظرت لعبد الرحمن في ذهول يشوبه دمع منهمر، لتغيب عن الدنيا وقد اختل توازنها وسقطت أرضًا، أسرع عبدالرحمن لإفاقتها بمساعدة إحدى الممرضات، لما أفاقت اقتربت من سرير أيوب ولم تتفوه ببنت شفة، ظلت تتأمله قرابة نصف الساعة وتتحسس ملامح وجهه وشعره القصير، ولما زالت الرهبة قليلًا احتضنته باكية ولا يوجد على لسانها إلا:

_ يا حبيبي يا أبي، يا حبيبي يا أبي، الآن فقط فهمت، الآن فقط أدركت.

الخاتمة

بعدما عادت أمل بأبيها إلى المنزل، أخذنا وقتًا ليس بقليل صامتتين أنا وهي، لا نستوعب ما يحدث، كدت أفقد وعيي فور رؤيته بلا شعر كثيف ولا لحية، فملامحه ظاهرة جدًّا وواضحة غير التي بالصور تمامًا، يبدو تائهًا أو مشوشًا، أما أمل قرة عيني، فبمجرد النظر إلى عيني، أجهشت في البكاء مرددة بطريقة هستيرية وصوت مرتفع، ذكرتني بنفسي يوم علمي بفقد أيوب:

لم كذبتِ عليّ، لِمَ لَمَ تخبريني، لقد كبرت على يقين أنني يتيمة، ما كل هذه القسوة! من أين لكِ بها! كيف طاوعتك نفسك أن تعيشي معي كل هذه السنوات دون أن تخبريني؟ لم حرمتِني من الأمل، لم؟ أجيبيني؟

حقيقة، لم أجد كلامًا مناسبًا للرد عليها، ولم أجد ردًّا شافيًا لها ومبرئًا لي سوى الصمت، كنت مذهولة وفي صدمة مهلكة، وصار عقلي يترجم ويحلل ما كنت أتعجب منه من تصرفات أمل ويونس تجاه أيوب وقت أن كان مجهولًا، مشاعرها ولهفتها عليه حبها وافتتانها به، حنينها له الذي ظننته حبًّا بالخطأ والشك مع الأسف، ولولا وجود أيوب معنا لهلكنا أنا وهي، ظلت معه تهتم لأمره وقاطعتني، كان هو، لم يتغير كثيرًا، أيوب زوجي أو

الذي كان زوجي، ولكن الشيب علا رأسه مع بعض التجاعيد، والحمد لله لم يتذكرني، فلم أكن لأستطيع النظر إلى عينيه، كان شاحبًا غير مدركٍ ما يحدث متعجبًا من الحقيقة، ولم تختلف ردة فعله عني، فظل صامتًا.

لم تصدر عنه أيّة كلمة سوى ابتسامة شاحبة على وجهه، كنت أراقبهما من بعيد، منسجمان متناغمان كحورية البحر وأبيها، ما وجدت تكفيرًا لما اقترفته في حق ابنتي إلا أن أخط هذه الرواية إهداءً لها، علها تغفر لي خطيئتي وعلها تقدر ما مررت به، وتعلم حقيقتي كأم لا يهمها سوى مصلحة ابنتها وسعادتها، ومكافأة على صمودها أمام فتنتها وتحملها فقدَ زوجها مقارنة بي أنا التي سقطت من أول الأمر في غياهب الخطيئة.

بعد عودة يونس من الشرقية مع جده، أعطته الموافقة على الزواج من عمر وقبلت أن تكون زوجة ثانية وتعيش خارج القاهرة، ما آلمني أنها فضلت ذلك على العيش معي.

تزوجت أمل بعُمر عن طريق الوكالة، وأخذ لها شقة في الشرقية بجوار أهله، وأخذت أمل أباها، وكان ذلك شرطها الوحيد، وقد كتبته في العقد، ورحلت ونسيت كتيب مذكراتها، اطّلعت عليه وعلمت المأساة التي عاشتها معي، فقررت تفريغ كل تلك المذكرات وكتابتها في رواية متكاملة مقرونة بالحقائق التي لا تعلمها فتاتي متخيلة فيها كل المواقف التي تمنيت فيها أن أكون بجوارها، تمنيت أن أكون معها في دار الرعاية، وأن أتعرف إلى

ندى، تمنيت أن أعتني بأيوب وقت أن شعرت بحاجته لي، وتمنيت أن أعطيه ملابس طاهر وبعضًا من نقوده، تمنيت أن أبثها مشاعر الحب والتفاهم، تمنيت أن يكون بيننا حوار ولو ببعض الكلمات، تمنيت لو أنه اجتمعنا يومًا في المطبخ كصديقتين، ولو لمرة واحدة نتسامر كأيّة أم وابنتها.

عادت ذات مرة تبحث عن الكتيب، ولكني خبأته عنها لحين الانتهاء من الرواية، ومن ثم طباعة نسخة واحدة فقط منها، وإهداؤها لها في يوم ميلادها.

رجائي الوحيد، أن تحرقها بعد أن تنتهي من قراءتها؛ كيلا يراها أحد غيرها.

أنا سمية والدتك يا أمل التي تحبك وتكن لك كل التقدير والاعتذار، تلك الصعيدية المتعجرفة، اليتيمة بلا يتم، تلك الأرملة التي لم تترمل، والأم التي لم تمارس أمومتها، تقبلي مني هديتي واعذريني على كذبي عليكِ عندما خبأت كتيب مذكراتك، فلم أكن قد انتهيت من تفريغه، انتظرك وانتظر عودتك ولو زائرة بكل شوق ولهفة أنتِ ويونس وأيوب.

إمضاء:

سمية، والدة أمل أيوب

تمت بحمد الله.